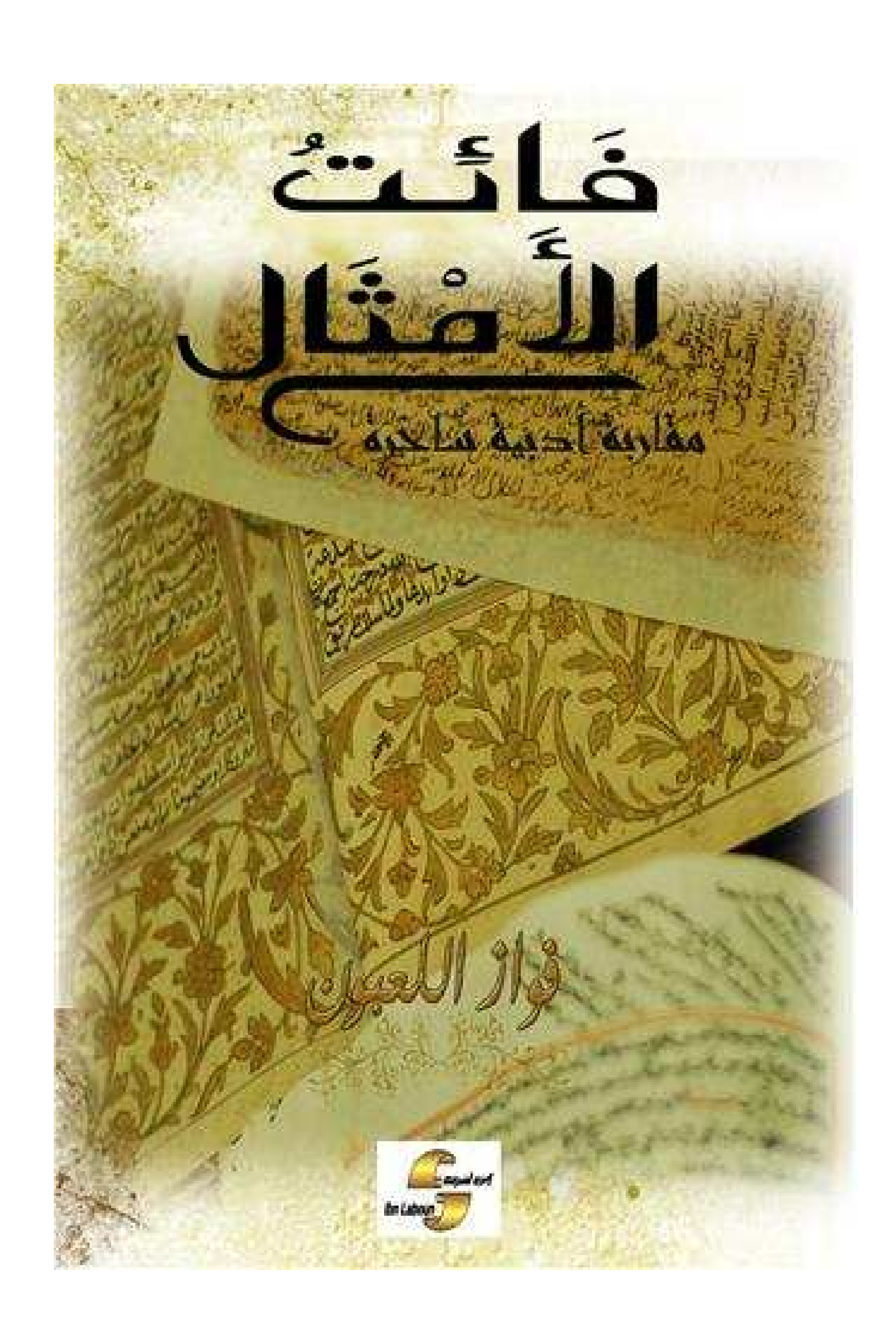

فَائِتُ
الأَمْثَال
مقاربة أدبية ساخرة
فواز اللعبون

فائت الأمثال :

مقاربة أدبية ساخرة

فواز اللعبون

١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م

دار ابن لعبون للنشر والتوزيع

***



ص.ب. ٦٣٢٨٠ الرياض ١١٥١٦

المملكة العربية السعودية

الهاتف والناسوخ: ٤٨٢٠٢١٤ ١ ٩٦٦+ Tel / Fax

www.ibnlaboun.com

E-mail: ibnlaboun@hotmail.com

الغلافان :

تصميم : أ. منى المديهش

عدسة : أ. عمر الرحيـلي

الإهداء :

ما أكثر المستحقين، وما أهون المهدَى..

والدايَ أكبر منه، وزوجتي أجلّ،

والآخرون لا يرضيهم البخس..

ليس غير صغيريّ يستران هذا التطفيف:

«عبدالعزيز و مهند»



على الضفاف

منذ ستة عشر قرناً والعرب يحترفون الكلمة، ويصوغون من جمالياتها فنونا، ومن فنونهم تلك أمثالهم الفائقة الدالة على مقدرتهم في التكثيف الدلالي، والاختزال اللفظي، ولذا حرص أوائل الأدباء والمهتمين على جمع بعض شتاتها، فأثبتوها في مصنفات خاصة، وقرنوها بالشروح، وأردفوا ما أمكن منها بخبره وقصته.

ولي في هذا المجموع المحدود مقاربة مختلَقة تقتفي الشكل السالف، وتحاذي مضمونه التوجيهي، بلغة أكثر وضوحا، وصياغات إخالها سَلِسة، وتضيف إليه مسحة فكاهة وسخرية، ولا أنكر أن هذه المسحة هي الركيزة التي عَلَّقْت عليها سائر الأهداف، وجَعَلْت منها الطُّعْم الذي يغري المتلقي باقتفائه.

والأمثال في مجموعها مستخلصة من مناحي حياتنا المعاصرة التي وجدت فيها ما هو جدير بالالتفات، وأنوه إلى أن هذه الأمثال ليست إلا مجرد انعكاس عن الواقع العام بحسنه وسيئه، ولا تعني في جملتها أنها انعكاس عن واقع خاص قريب، عدا المثل الأخير الذي مزجت فيه بين واقعين، ثم أودعت فيه إيضاحاً واعتذاراً لمن قد يلمس في بعض الأمثال انتقاداً لفئات، أو تزكية لأخرى.

وفي مجموعي هذا ثلاثون مثلاً تضمنت ثلاثين قصيدة بأبيات عدتها ثلاثمئة وخمسة وستون بيتا، وقد تفاوتت الأمثال طولاً وقصراً حسب سعة أخبارها، على أن معظمها متقارب نسبيّا، ورتَّبتها ترتيباً هجائيّاً آليّاً حسب بداية كل مثل، بغض النظر عن جذر أوله وزياداته.

وقد انتهجت منهجاً موحداً جرت عليه جملة من الأمثال القديمة؛ فابتدأت بنص المثل، ثم أوردت السياق الذي يُضرب فيه، مع شرح ما يحتاج إلى شرح من مفرداته، يلي ذلك أصل المثل المتضمِّن قصته المفتعلة، وختمته بأبيات شعرية يشتمل أحدها على المثل الوارد، وعلى هذا فالغالب أن أبطال الأمثال شعراء انتقاديون مثاليون، وهذا من الإمعان في الخيال والتجنيح.

ولما كانت مقاربتي انعكاساً عن التراث في شكله، وعن المعاصرة في مضمونها، آثرت أن أجمع بين أبرز خصائصها الأدبية في الكتابة؛ فجئت بالمتن مسجوعا، وضبطته بالشكل ضبطاً تامّاً إلا في مواضع الوقف، ثم سقت ذلك كله في مضمار سهل ممهد، فلم أوغل في تعقيد لغوي ولا بياني، ولم أعتمد من الألفاظ والصياغات إلا ما خلته قريباً من متوسطي الثقافة والاطلاع.

وآمل أن تؤدي محاولتي هذه أهدافها التي جعلتها نصب عينيّ قبل البدء وأثناءه، وعلى رأس أهدافي تلك تقريب متميزي الناشئة، وغير المتخصصين في حقول الأدب إلى جميل التراث، وصالح المعاصرة، بطريقة حكائية محببة تغري بسخريتها ولذعها، إضافة إلى نقد بعض المظاهر الخاطئة التي تعم المجتمع العربي على وجه الخصوص.

ومن الإنصاف أن أشكر من وقف معي مقترِحاً ومراجِعاً ومشجِّعا، فلهم مني وافر الامتنان، وصادق العرفان، وأخص زميلي الكريم الدكتور: بدر بن محمد الراشد الذي انتشل هذا العمل من أخطاء الطباعة، وهنات اللغة، وأشكر أيضاً الزميلة الفاضلة والقاصة المبدعة الأستاذة: منى بنت إبراهيم المديهش التي أسبغت على الأمثال سربالين من حس وحدس، فصممت الغلافين وقد أشربتهما الفكرة ظاهراً وباطنا، ولو امتد بي نشاط قادم لأفردتهما وغيرهما بمثل يكشف عن نُبلهم، ويُعَرِّي قصوري معهم، كما لن تفوتني الإشادة الطُّوْلَى بصاحب البذرة الأُوْلَى الذي أفدت منه ما لا أحصي منافعه في هذه الأمثال وغيرها، وهو فارس المقامات أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت: ٥١٦هـ- ١١٢٢م) عليه من الله شآبيب الرضوان والرحمة.

بقي أن أقدم اعتذاري إلى من قد يستشعر في بعض الأمثال غمزاً أو إساءة، وأؤكد لـه ولغـيره أنني محسوب –بشكل أو آخر– على معظم النماذج الواردة، وأنني في أحيان أخرى قد أتمثـل نفـسي الشخصية المنقودة، فأصوغ المثل وخبره عـلى هـذا الأسـاس، بعـد أن أضـفي عليـه جوانـب مـن التهويل والمبالغة.

هذا، وأحمد الله سبحانه، وأصلي وأسـلم عـلى نبينـا محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، وعـلى آلـه وصحبه.

فواز بن عبدالعزيز اللعبون

الرياض

alrsad@hotmail.com

٢٨/ ٤/ ١٤٢٨هـ

١٥/ ٥/ ٢٠٠٧م

١ – «أَبْشَعُ مِنْ وُصُوْلِيّ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ كَثُرَ نِفَاقُه، وانْحَطَّتْ في التَّمَلُّقِ أَخْلاقُه، ولَهُ في الـمُمَاذَقَةِ أُسْلُوْب، ومَـاءُ وَجْهِهِ مَسْكُوْب، والوُصُوْلِيُّ قِرْدٌ في هَيْئَةِ إِنْسَان، يَتَسَلَّقُ إلى مَصَالِـحِهِ بِاللِّسَان، وهـوَ أَيْـضاً عَـدِيْمُ الكَرَامَة، تَأْنَفُ مِنْ قَذَارَتِهِ القُمَامَة، يَبِيْعُ أُمَّهُ وأَبَاه، لِيَصِلَ إلى مَسْعَاه، تَـرَاهُ مُلْتَـصِقاً بِـالكُبَرَاء، وهُـمْ يُعَامِلُوْنَهُ كَالـحِذَاء، وقَدْ يُـصَاحِبُ عَامَّـةَ النَّـاس، ويَرْفَـعُ ذَنَبـاً يَظُنُّـهُ الـرَّاس، لا مَبْـدَأَ يَـحْكُمُ تَصَرُّفَاتِه، ولا يَـرَى إلاّ تَـحْقِيْقَ ذَاتِه.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ مُوَظَّفاً عَظِيْمَ الـهِمَّة، يُـؤَدِّي عَمَلَـهُ بِـإِخْلاصٍ وذِمَّـة، وكَـانَ لَـهُ زَمِيْـلٌ كَثِـيْرُ الإِهْمَال، عَلَيْهِ مِنَ الدَّنَاءةِ سِرْبَال، لَـمْ يَـرَ أُمَّهُ مُنْذُ سِنِيْن، وأَبُوْهُ في دَارِ المُسِنِّيْن، وإذا رَأَى رَئِيْسَهُ قَبَّلَ يَدَيْه، وكَادَ يَلْعَقُ بَاطِنَ رِجْلَيْه، ويُسْمِعُهُ كَلِمَاتِ التَّبْجِيْلِ والتَّعْظِيْم، ويَشْتُمُ أَمَامَـهُ الـرَّئِيْسَ القَـدِيْم، وإذا مَرِضَ ابْنُ الرَّئِيْس، قَفَزَ بِهِ إلى (ابْنِ النَّفِيْس)، وإنْ فَرَغَتْ أُنْبُوْبَةُ غَازِه، حَمَلَها لَهُ عَـلَى أَعْجَـازِه، ومَتَى انْتَـهَتْ مُدَّةُ الرِّئاسَة، سَحَبَ عَلَيْهِ ذَيْلَ الـخَسَاسَة، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الرَّئِيْسَ الـجَدِيْد، بِكُلِّ حَفَاوَةٍ وتَـمْجِيْد، ومَضَى عَلَى عَادَتِهِ المُخَادِعَة، فحَقَّقَ لَهُ رُؤَسَاؤهُ مَطَامِعَه، وهوَ مَعَ ذَلِكَ وَاشٍ نَمَّام، ومَاهِرٌ في حَبْكِ الكَلام، سَبَقَ أَنْ وَشَى بِزَمِيْلِهِ الشَّرِيْف، فنُقِلَ مِـنْ فَـوْرِهِ إلى الأَرْشِـيْف، وفَـازَ هُـوَ بِعُلُـوِّ الرَّاتِبِ والمَرْتَـبَة، وحَظِيَ بِالانْتِدَابَاتِ ولَـمْ يَبْرَحْ مَكْتَـبَه.

فلَـمَّا رَأَى المُوَظَّفُ ضَيْعَةَ حَالِه، وكَيْفَ ظَفِرَ الوُصُوْلِيُّ بِآمَالِه، قَرَّرَ أَنْ يَـتَخَلَّى عَـنِ الإِبَـاء، وأَنْ يُنَازِعَ الوُصُوْلِيَّ الإِنَاء، فطَرَحَ عَنْ كِبْرِيَائه الـخَجَل، واسْتَأْذَنَ عَلَى رَئِيْـسِهِ ودَخَـل، فحَبَـكَ لَـهُ مِـنَ التَّمْجِيْدِ عَبَاءات، وقَالَ فِيْهِ مِنَ الشِّعْرِ مُعَلَّقَات، ثُمَّ مَسَحَ حِذاءَهُ ولَـمَّعَه، وسَـارَ إلى البَيْـتِ مَعَـه،

فنَفَضَ عَنِ العَتَبَاتِ الغُبَار، وانْحَنَى وامْتَطَاهُ الصِّغَار، فَمَا مَرَّ أَكْثَرُ مِنْ أُسْبُوْع، إلاّ وأَمْرُهُ مُطَاعٌ مَسْمُوْع، ونَهَضَتْ بِهِ رِجْلُهُ العَاثِرَة، وأَصْبَحَ مُدِيْراً في الدَّائرَة، فاسْتَدْعَى الوُصُوْلِيَّ وشَكَرَه، وأَعْطَاهُ مِنْ بُسْتَانِهِ ثَمَرَة، ثُمَّ نَادَى بِصَوْتٍ سَمِيْك، وأَمَرَ الوُصُوْلِيَّ بِالتَّدْلِيْك، وظَلَّ وَرَاءهُ يُدَلِّكُهُ بِرِفْق، ويَدْعُو لَهُ بِسَعَةِ الرِّزْق، وأَثْنَاءَ اسْتِرْخَائِهِ اعْتَدَلَ واسْتَدَار، وأَنْشَدَ وهوَ عَلَى كُرْسِيِّهِ الدَّوَّار:

أَلاَ لِلَّـــهِ دَرِّي مِـــنْ نَبِيْـــهٍ   تَغَـانَمَ عُمْـرَهُ قَبْـلَ انْقِـضَاءِ
ظَفِـرْتُ مِـنَ التَّمَلُّـقِ بِالأَمَـانِي   فَتَـبّاً لِلْكَرَامَـةِ وَالإبَـاءِ
وَكُنْـتُ أَرَى الـشُّمُوْخَ رِدَاءَ عِـزٍّ   فَعَـرَّى كُـلَّ سَـوْءاتِي رِدَائـي
لَيَـالِيَ كُنْـتُ مُـحْتَقَراً ضَـئِيْلاً   وَفي الأَرْشِـيْفِ مُطَّرَحـاً وَنَـائي
أُغَـالِطُ وَهْـمَ عِـزَّتِيَ ادِّعَـاءً   فَـمَاذا زَادَنِي وَهْـمُ ادِّعَـائي؟!
فَمَـنْ يَـصِفُ التَّمَلُّـقَ بِانْحِطَـاطٍ   وَهَـا أَنَـذَا أُحَلِّـقُ في الـسَّمَاءِ؟!
وَخَلْفِـي سَـافِلٌ أَحْـرَزْتُ مِنْـهُ   فُنُـوْنَ المَـذْقِ وَالقَـوْلِ الـهُرَاءِ
فَنِلْـتُ بِـهِ الـذي لَـمْ يَـسْتَطِعْهُ   فَيَـا لِلَّـهِ مَـا أَقْـوَى دَهَـائي
أُبَادِئُـهُ الـسِّبَابَ وَلَـيْسَ يُبْـدِي   لِوَقْـعِ بَـذَاءَتِي أَيَّ اسْـتِيَاءِ
وَلَـوْ أَعْمَلْـتُ كَفِّـي في قَفَـاهُ   لَبَـادَرَنِي بِـأَنْوَاعِ الـدُّعَاءِ
فَأَسْـأَلُكُمْ بِـرَبِّي هَـلْ رَأَيْـتُمْ   كَأَبْـشَعَ مِـنْ وُصُـوْلِيٍّ وَرَائـي؟

٢ – «أَبْطَأُ مِنْ قَاض»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنِ انْتَـهَجَ التَّسْوِيْف، وتَقَاعَسَ عَنْ حَمْلِ الثَّقِيْلِ والـخَفِيْف، وأَجَّـلَ أَعْـمَالَ النَّاسِ وأَعْمَالَه، وشَكَا مَنْ حَوْلَهُ إهْمَالَه، والقُضَاةُ رِجَال أُنِيْطَ بِـهِمُ العَـدْل، وانْتُظِـرَ مِـنْهُمُ الـخَيْرُ والفَضْل، وقَدْ يُبْتَـلَى بِـبَعْضِهِمُ القَضَاء، فيُـشَوِّهُوْنَ وَجْهَـهُ الوَضَّـاء، ولِـذا قَـالَ عَـنْهُمُ المُـصْطَفَى المُخْتَار: ، قَاضٍ فِي الـجَنَّةِ وقَاضِيَانِ فِي النَّـار، وهُـمْ عُـصْبَةٌ قَلِيْلَـةُ الإحْـسَاس، لا تُرَاعِـي مَـصَالِحَ النَّاس، يَبْدُوْنَ بِوُجُوْهٍ كَالِحَة، ولِـسِيْرَتِـهِمْ أَنْـتَنُ رَائحَـة، يَغْلِـبُ عَلَـيْهِمُ التَّكَـبُّرُ والـصَّلَف، ولَـوْ وَزَنْتَـهُمْ لَـمْ يَزِنُوا الـخَزَف.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ شَابّاً رَاجَعَ المَحْكَمَة، لِيَرْفَعَ فِيْها عَلَى خَصْمِهِ مَظْلَمَة، وكَانَ خَصْمُهُ قَـدْ نَـهَبَهُ مَالَه، وحِيْنَ وَاجَهَهُ أَنْكَرَ مَا لَه، ومَعَ الفَـتَى أَوْرَاقٌ تُثْبِتُ ما ادَّعَاه، وشُهُوْدٌ يُؤَكِّدُوْنَ صِـدْقَ دَعْـوَاه، فأُحِيْلَ إلى قَاضٍ بَادِي البِطْنَة، مُقَطِّبِ الـجَبِيْنِ قَلِيْلِ الفِطْنَة، فلَـمَّا مَثَلَ أَمَامَه، وأَهْدَاهُ سَلامَه، رَمَقَـهُ القَاضِي بِعَيْنِ المُسْتَرِيْب، كَمَا يَرْمُقُ فَرِيْسَتَهُ الذِّيْب، ثُمَّ مَضَى يُـخْبِرُهُ عَنِ القَضِيَّة، وعَمَّا لاقَاهُ مِنْ أَذِيَّة، وقَدَّمَ لَهُ الأَوْرَاقَ والشُّهُوْد، ثُمَّ قَاطَعَهُ القَاضِي بَعْـدَ هُجُـوْد، وقَـالَ: كُـفَّ عَـنِ الكَـلام، وأَحْـضِرْ خَصْمَكَ بَعْدَ عَام، فحِيْنَ اسْتَكْثَرَ الفَـتَى المُدَّة، طَرَدَهُ القَاضِي شَرَّ طِرْدَة، بَعْدَ أَنْ نَكَّلَ بِهِ كُلَّ تَنْكِيْـل، وضَاعَفَ لَهُ مُدَّةَ التَّأْجِيْل، ثُمَّ أَقْبَلَ الفَـتَى فِي المَوْعِـدِ المَـضْرُوْب، ولَـمْ يَـسْتَطِعْ إحْـضَارَ خَـصْمِهِ المَطْلُوْب، فأَمْهَلَهُ القَاضِي عَامَيْنِ آخَرَيْن، فشَكَرَهُ ودَمْعُهُ يُسَابِقُ العَيْن، فصَاحَ القَاضِي: أَتَسْخَرُ بِي يَا غُلام؟، مَوْعِدُكَ إذَنْ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَعْوَام.

ومَرَّتْ تِسْعَةُ أَعْوَامٍ وهوَ يُرَاجِع، ويَكْتُمُ فِي أَحْشَائِهِ الأَسَى والمَوَاجِع، فلا هُوَ اسْتَطَاعَ إِحْضَارَ خَصْمِه، ولا القَاضِي هَمَّ بِإِصْدَارِ حُكْمِه، وفِي العَامِ العَاشِرِ مِنَ المُرَاجَعَات، اسْتَأْجَرَ الرَّجُلُ مَجْمُوْعَةَ فُتُوَّات، واقْتَادَ خَصْمَهُ إلى القَاضِي، ونَسِيَ كَرْبَ سِنِيْهِ المَوَاضِي، ودَخَلَ مَجْلِسَهُ الذي يَعْرِفُه، فوَجَدَ قَاضِياً آخَرَ يَخْلِفُه، فسَأَلَهُ عَنْ قَاضِيْهِ فِي انْدِهَاش، فأَخْبَرَهُ أَنَّهُ أُحِيْلَ إلى المَعَاش، وحِيْنَئِذٍ بَادَرَ الخَصْمُ اللَّئِيْم، يَشْكُو لِلْقَاضِي عُنْفَ الغَرِيْم، وأَنَّهُ قَادَهُ إِلَيْهِ بِالقُوَّة، ولَمْ يَسْلُكِ الطُّرُقَ المَرْجُوَّة، فمَا لَبِثَ القَاضِي الجَدِيْد، أَنْ كَبَّلَ الغَرِيْمَ بِالحَدِيْد، وأَمَرَ الحُجَّابَ بِحَبْسِهِ وجَلْدِه، حَتَّى يَشْكُوَ السَّوْطُ مِنْ جِلْدِه.

ولَمَّا اسْتَوْفَى الرَّجُلُ كَامِلَ عُقُوْبَتِه، جَدَّدَ إلى القَاضِي رَفْعَ خُصُوْمَتِه، فصَنَعَ بِهِ صَنِيْعَ القَاضِي السَّابِق، وأَلْزَمَهُ بِإِحْضَارِ خَصْمِهِ الآبِق، ومَرَّتْ عَلَيْهِ الشُّهُوْرُ والسَّنَوَات، وشَاخَ الرَّجُلُ وخَصْمُهُ مَات، فأَوْصَى بَنِيْهِ أَنْ يُطَالِبُوا وَرَثَتَه، وأَنْ يُحْضِرُوا أَوْرَاقَهُ ومِحْبَرَتَه، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِكِتَابَةِ مَا أَحْرَقَ أَعْمَاقَه، وأَمْلَى وهوَ عَلَى كُرْسِيِّ الإِعَاقَة:

إِلَى اللهِ أَشْكُو ضَعْفَ حَالِي وَحِيْلَتِي ... وَمَا ضَاعَ مِنْ مَالِي وَمِنْ عُمْرِيَ المَاضِي

فَيَا لَيْتَ أَنِّي أَسْتَعِيْضُ بِمَا مَضَى ... مِنَ المَالِ عُمْراً لَسْتُ عَنْهُ بِمُعْتَاضِ

دُهُوْرٌ مِنَ الخِذْلانِ مَرَّتْ بَطِيْئَةً ... وَمَرَّ شَبَابِي بَيْنَهَا مِثْلَ إِيْمَاضِ

وَخَلَّفَنِي يَأْسِي كَسِيْفاً مُعَذَّباً ... أُعَانِي مَرَارَاتِي وَكَثْرَةَ أَمْرَاضِي

سَعَيْتُ إلى حَقِّي فَمَاطَلَنِي بِهِ ... قُضَاةٌ أَرَوْنِي مِنْهُمُ كُلَّ إِعْرَاضِ

فَعُدْتُ عَلَى الأَعْقَابِ مُضْطَرِبَ الخُطَى ... وَهَا أَنَذَا نِضْوٌ أُلَمْلِمُ أَنْقَاضِي

ظَمِئْتُ فَأَغْرَانِي سَرَابٌ مِنَ المُنَى ... ظَنَنْتُ بِهِ رِيّاً، فَيَا طُوْلَ تَرْكَاضِي!
فَلَمْ أَرْوِ مِنْ وِرْدِ القُضَاةِ حُشَاشَتِي ... ولَمْ يَسْقِ مَاءُ العَدْلِ يَابِسَ أَحْوَاضِي
صُدُوْدٌ وَتَسْوِيْفٌ وَطُوْلُ تَجَهُّمٍ ... وَزَجْرٌ وَتَهْدِيْدٌ وَنَظْرَةُ إِبْغَاضِ
فَلِلَّهِ مَا لاقَيْتُ مِنْ سُوْءِ بَعْضِهِمْ! ... وَلِلَّهِ كَمْ يُبْلَى القَضَاءُ بَعَضَّاضِ!
يُرِيْكَ إذا مَا جِئْتَهُ كُلَّ جَفْوَةٍ ... كَأَنَّكَ مِنْهُ آمِلٌ بَعْضَ إِقْرَاضِ
يُشَوِّهُ شَرْعَ اللهِ شَكْلاً وَمَخْبَراً! ... وَيَزْهُو بِبُرْدٍ حَاسِرٍ عَنْهُ فَضْفَاضِ!
رَضِيْتُ بِشَرْعِ اللهِ حُكْماً مُنَزَّهاً ... وَمَا أَنَا عَمَّنْ شَوَّهَ الشَّرْعَ بِالرَّاضِي
فَلا تَعْذِلُوْنِي لَوْ تَبَاطَأَ بِي الأَسَى ... وَصِحْتُ بِأَعْلَى الصَّوْتِ: أَبْطَأُ مِنْ قَاضِي

٣ – «أَبْلاَهْ مُسْتَوْصَفٌ خُصُوْصِيّ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في المُطْرِقِ السَّاهي، وقَدْ دَهَتْهُ مِنْ دُنْيَاهُ الدَّوَاهي، وصَارَ لِشِدَّةِ مَصَائبِه، يَنْتِفُ أَطْرَافَ شَوَارِبِه، وعَيْنَاهُ في المَدَى مُحَمْلِقَتَان، وعَلَى شَفَتِهِ يَتَدَلَّى اللِّسَان، والمُسْتَوْصَفُ الخُصُوْصِيُّ مَصْيَدَة، ظَاهِرُهُ الرَّأْفَةُ وبَاطِنُهُ المَنْكَدَة، يَمْتَصُّ أَمْوَالَ المَسَاكِيْن، ويَقْطَعُ مِنْهُمْ بِسِكِّيْن، الدَّاخِلُ إِلَيْهِ مَخْدُوْع، والخَارِجُ مِنْهُ مَفْجُوْع، يُظْهِرُ في الصَّحِيْحِ العِلَل، ويُدْنِي مِنَ العَلِيْلِ الأَجَل.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ رَجُلاً قَرَصَتْهُ نَمْلَة، ولَمْ تُصِبْهُ مِنَ القَرْصَةِ أَيَّةُ عِلَّة، فوَسْوَسَ لَهُ أَصْحَابُهُ الخَوَاصّ، بِمُرَاجَعَةِ المُسْتَوْصَفِ الخَاصّ، وذَلِكَ لِسُرْعَتِهِ في إِنْجَازِ المَهَامّ، ولِكَثْرَةِ ازْدِحَامِ المُسْتَوْصَفِ العَامّ، وأَوْصَوْهُ بِتَضْمِيْدِ مَكَانِ القَرْصَة، وأَلاّ يَتْرُكَ لِعَوْدَةِ الأَلَمِ فُرْصَة، فوَثَبَ الرَّجُلُ إلى المَكَانِ المُشَارِ إِلَيْه، ودَفَعَ أُجْرَةَ التَّضْمِيْدِ والكَشْفِ عَلَيْه، ثُمَّ أَشْخَصُوْهُ إلى طَبِيْبٍ أَقْرَع، لِلْفَهْلَوَةِ في وَجْهِهِ مَرْتَع، وعَلَيْهِ نَظَّارَةٌ سَمِيْكَة، والشَّهَادَاتُ تَمْلأُ شَبَابِيْكَه، فلَمَّا رَأَى القَرْصَةَ وَلْوَل، واسْتَدْعَى مُسَاعِدِيْهِ واسْتَعْجَل، وأَمَرَ بِنَقْلِهِ إلى غُرْفَةِ الإِسْعَاف، وطَلَبَ مِنَ الرَّجُلِ بِطَاقَةَ الصَّرَّاف، ثُمَّ شَدَّ حِزَامَ البِنْطَال، واقْتَرَبَ مِنْهُ وقَال:

لَقَدْ رَأَيْتُ وَرَبِّنا المَعْبُوْد، بِعَيْنِي التي سَيَأْكُلُها الدُّوْد، قَرْصَةً لَمْ أَرَ مِثْلَهَا عَلَى الإِطْلاق، ولا أَعْرِفُ أَخْطَرَ مِنْها عَلَيَّ الطَّلاق، ولِذا سَنُجْرِي لَكَ التَّحَالِيْلَ الفَوْرِيَّة، ونُخْضِعُكَ لِبَعْضِ الأَشِعَّةِ المَقْطَعِيَّة، فإِنْ كَانَتِ النَّتِيْجَةُ كَمَا في البَال، فلا بُدَّ فَوْراً مِنَ الاسْتِئْصَال، وسَنَقُصُّ أَوَّلاً إِصْبَعَكَ المَقْرُوْص، فإِنِ انْتَقَلَتِ العَدْوَى مِنَ المَقْصُوْص، فوَالكَعْبَةِ الشَّرِيْفَةِ والمُصْحَف، لا بُدَّ مِنِ اسْتِئْصَالِ الكَفّ، وقَدْ نَسْتَأْصِلُ أَعَلَى السَّاعِد، والبِنْكِرْيَاسَ والكَبِدَ الزَّائد، ورُبَّمَا اضْطُرِرْنا إلى بَتْرِ رِجْلَيْك،

وقَدْ نَـنْـزِعُ إحْدَى كُلْيَتَيْك، فوَقِّعْ عَلَى وَرَقَةِ المُوَافَقَة، وهُنَا عَلَى الفَاتُوْرَةِ المُرَافِقَة، وبِحَـقِّ مـا أَكَلْنَـاهُ مِنْ عَيْشٍ ومِلْح، إنَّ هَدَفَنا العِلاجُ ولَيْسَ الرِّبْح، فإنْ أَخَذَتْكَ بِالشَّكِّ لَـجَاجَة، فإنَّ الفُلُـوْسَ آخِـرُ حَاجَة، ومِثْلُكَ نَرْفَعُهُ عَـلَى الـرُّؤوْس، ونُعَالِـجُهُ مِـنْ غَـيْرِ فُلُـوْس، ولَكِنَّـهُ ثَمَـنُ الـدَّوَاءِ وغُرْفَـةِ الإنْعَاش، وقِيْمَةُ ما سَنَـنْسَاهُ فِيْكَ مِنْ شَاش.

فوَقَّعَ المِسْكِيْنُ عَلَى الأَوْرَاق، وهوَ بَيْنَ الذُّهُوْلِ والإشْفَاق، فلَـمَّا أُجْرِيَتْ لَهُ العَمَلِيَّات، وأَفَـاقَ مِنْ خَدَرِ الإغْمَاءات، شَخَصَ بِعَيْنِهِ اليُسْرَى، حَيْثُ لَـمْ يَـجِدِ الأُخْرَى، فَـصَوَّبَ عَيْنَـهُ الشَّاخِـصَة، ووَجَدَ جُثَّـتَهُ نَاقِصَة، القُطْنُ يَمْـلأُ كُوْعَـه، وسَـاقُهُ اليُمْنَـى مَقْطُوْعَـة، ورِجْلُـهُ اليُـسْرَى مَـشْلُوْلَة، وإحْدَى أُذُنَيْهِ مَنْشُوْلَة، وضِرْسُهُ الصِّنَاعِيُّ مُنْتَـهَب، إذْ كَانَ مَصْنُوْعاً مِـنْ ذَهَـب، وشَعَـرَ أَنَّ بَطْنَـهُ بَادِي الارْتِـخَاء، لِكَثْرَةِ ما سُلِبَ مِنْهُ مِـنْ أَعْـضَاء، وبَيْنَمَــا هُـوَ يَفْحَـصُ المَـسَالِك، ويَتَحَقَّـقُ مِـنْ وُجُوْدِها هُنَالِك، إذْ دَخَلَ عَلَيْهِ الطَّبِيْبُ المُحْتَـال، وبَـارَكَ لَـهُ عَـلَى تَـحَسُّنِ الــحَال، ووَصَـفَ لَـهُ عِلاجَاتٍ وَافِرَة، ودَلَّهُ عَلَى الصَّيْدَلِيَّةِ المُجَاوِرَة، فأَخَذَ الرَّجُلُ يَبْكِي مِـنَ البَلْـوَى، ويَتَوَعَّـدُ الطَّبِيْـبَ بِالوَيْلِ والشَّكْوَى، فرَمَقَهُ الطَّبِيْبُ وابْتَسَم، ونَاوَلَهُ الوَرَقَةَ والقَلَم، وقَالَ: أُوْصِيْكَ بِحُسْنِ الصِّيَاغَة، ومُرَاعَاةِ قَوَاعِدِ النَّحْوِ والبَلاغَة، وإنْ شِئتَ التَّقْوِيْم، فأَنا مُدَرِّسٌ قَدِيْم.

فلَمْ يَمْلِكِ الرَّجُلُ إلاّ أَنِ اسْتَدْعَى ذَوِيْه، فأَخْرَجُوْهُ حَامِلِيْنَ ما بَقِـيَ فِيْـه، وتَأَمَّـلَ مَـرَّةً أُخْـرَى أَوْصَالَه، فأَنْشَدَ وهوَ عَلَى النَّقَّالَة:

إلَيْـــكَ يَـــا خَـــالِقِي شَـــكَاةً ... مِـنْ مُـدَّعِي الطِّـبِّ وَاللُّـصُوْصِ

أَتَيْـــــتُهُمْ طَالِبــــاً ضَــــمَاداً ... فَعَوَّقُـــوْنِي عَـــنِ الــــخُلُوْصِ

وَأَشْخَـــــصُوْنِي إلى طَبِيْـــــبٍ ... وَيْــلاهُ مِنْــهُ وَمِــنْ شُــخُوْصي

غَالَى بِإِرْجَافِهِ فَتَبّاً ... لِشَارِبٍ مِنْ دَمِي مَصُوْصِ

وَكَانَ فِي رَأْسِهِ بَرِيْقٌ ... كَأَنَّهُ لَمْعَةُ الفُصُوْصِ

مَنْ صَدَّقَ القُرْعَ فَهْوَ شَخْصٌ ... –لا شَكَّ–مِنْ أَحْمَقِ الشُّخُوْصِ

عَرَّى أَكَاذِيْبَهُمْ ثِقَاتٌ ... وَذَمَّهُمْ ثَابِتُ النُّصُوْصِ

وَحَذَّرَتْ مِنْهُمُ الوَصَايَا ... وَحَالَتِي بِالحِذَارِ تُوْصِي

قَدْ كُنْتُ مِنْ قَبْلُ مُسْتَصِحّاً ... وَالآنَ أَصْبَحْتُ عُوْدَ خُوْصِ

أَسْعَى بِنَقَّالَتِي حَثِيْثاً ... كَأَنَّنِي أَمْتَطِي قَلُوْصِي

يَقُوْلُ مَنْ رَاعَهُ بَلائِي: ... أَبْلاَهُ مُسْتَوْصَفٌ خُصُوْصِي

٤ – «أَجْوَرُ مِنْ أُنْثَى عَلَى أُنْثَى»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في كثيرِ الظُّلْمِ عظيمِه، وفي كارِهِ قَرِيْبِهِ وحَمِيْمِه، ولِمَنْ يَـزْدَادُ ظُلْمُـهُ عَـلَى فِئـات، ويَلِيْنُ لَدَى أُخْرَى كَالشَّاة، وأُفْرِدَتِ الأُنْثَى بِصِفَةِ الـجَوْر، لأنَّ كَيْدَها أَبْعَدُ في الغَوْر، كَـمَا أنَّ جَـوْرَ الإِنَاثِ عَلَى الإِنَاث، لَهُ وَقَائِعُ ثَابِتَةٌ في التُّرَاث.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً تَزَوَّجَ زِيْـجَةً رَابِعَة، منْ فَـتَاةٍ تَـدْرُسُ في الـجَامِعَة، فكَانَـتْ تَـشْكُو لَـهُ طَيْشَ العَامِلات، مِنْ مُوَظَّفَاتٍ ومُعَلِّـمَات، وكَانَتْ تَدْعُو أَنْ يَصِيْرَ الأَمْرُ إلى الرِّجَال، لِـمَا تَـرَاهُ مِـنْ رَأْفَتِهِمْ عَلَى كُلِّ حَال، أَوْ أَنْ يُوَلَّى مِثْلُها عَلَيْهِنّ، لِيَتَمَيَّـزَ لُطْفُهَا مِنْ بَيْنِهِنّ.

فشَاءَ ذُو المَنِّ وَالإِحْسَان، أنْ تَكُوْنَ مِنْ مَنْسُوْباتِ المَكَان، فسَارَتْ عَلَى سِيْرَةِ المَوَائل، وجَـاءتْ بِمَا لَـمْ يَأْتِ بِهِ الأَوَائل، فأَسَاءتِ المُعَامَلات، وفَـتَـكَتْ بِالطَّالِبَات، وبَلَغَ زَوْجَهـا مـا هِـيَ فِيْـهِ مِـنْ سُفُوْل، فأَنْشَأَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُوْل:

رَثَيْـتُ لَــهَا إذْ طَـالَ بَـوْحُ شَكَاتِــها ... مِـنَ الغَـبْنِ، وَالمَغْبُـوْنُ لا بُـدَّ أن يُرْثَـى

تُــسَائِلُ مَوْلاهَــا بِــأَنْ يَرْفَــعَ الأَذَى ... وَيَكْبِــتَ عَنْهَــا نِــسْوَةً زِدْنَـــهَا بَثّــا

تَقُــوْلُ: لَــوِ المَــوْلَى اصْـطَفَانِي مُعِيْـدَةً ... لَـحَرَّمْتُ هَـذا الـجَوْرَ وَالكَيْـدَ وَالـخُبْثا

وَكُنْــتُ أُسَــلِّيْهَا بِعُقْبَــى اصْــطِبَارِها ... وَأَبْعَثُ فِيْها الفَأْلَ –مِـنْ طِيْبَتِـي– بَعْثـا

فَلَــمَّا مَــضَتْ أَيَّامُهَــا وَتَـــخَرَّجَتْ ... أَفَاضَ عَظِيْمُ الـجُوْدِ فَضْلاً عَلَى الغَرْثَى

فَأَخْفَتْ شَـكَاوَاها، وَأَبْـدَتْ شُرُوْرَهَـا ... وَرَاحَتْ تَـبُثُّ اللُّـؤْمَ مِـنْ حَوْلِـهَا بَثّـا

فَقُلْتُ –وَقَدْ أُخْبِرْتُ عَنْ بَعْـضِ جَوْرِهَـا–: هُوَ الـجَوْرُ قَدْ حَازَتْهُ مِنْ جِنْـسِهَا إرْثـا

وَقَدْ صَـدَقُوا.. لا شَيْءَ أطْـيَشُ مِـنْ فَتـى وَأَجْـوَرُ مِـنْ أُنْثَـى لَــجُوْجٍ عَـلَى أُنْثَـى

٥ – «أَحْمَقُ مِنْ بِرُقْرَاط»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ أَعْيَاهُ البَلَه، وظَنَّ أَنَّهُ في الـحِذْقِ لا مَثِيْلَ لَه، وبِرُقْرَاطُ رَجُلٌ مِنَ الأَوَائل، وَلاَّهُ السُّلْطَانُ بَعْضَ الشَّوَاغِل، وكانَ كَثِيْرَ الوَسْوَسَةِ والتَّعْقِيْد، مَرَّ بِهِ في عَمَلِهِ العُمْرُ المَدِيْـد، ولَـمْ يُنْجِزْ شَيْئاً ذَا قِيْمَة، ولَـمْ تَكُنْ سِيْرَتُهُ قَوِيْمَة، وهوَ مُؤَسِّـسُ اللِّجَانِ الفَرْعِيَّة، وإِلَيْـهِ تُنْـسَبُ النَّظَرِيَّـةُ البِيْرُقْرَاطِيَّة.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ كَاتِباً لَدَى بِرُقْرَاط، عُرِفَ عَنْهُ الإِخْلاصُ والنَّشَاط، وحَـدَثَ أَنِ انْتَــهَى حِـبْرُ دَوَاتِه، ولَـمْ يَسْتَطِعْ إِنْجَازَ مَهَمَّاتِه، فعَــرَضَ مُـشْكِلَـتَهُ عَـلَى مُـدِيْرِه، فعَنَّفَـهُ عَـلَى إِهْمَالِـهِ وتَبْـذِيْرِه، ورَفَضَ أَنْ يُزَوِّدَهُ بِمَا أَرَاد، وأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ ثَمَنَ المِدَاد، وأَحَالَ طَلَبَهُ إِلى اللِّجَان، ومَرَّ عَـلَى البَـتِّ فِيْـهِ عَامَان، وطَوَالَ مُدَّةِ البَتِّ في الطَّلَب، لَـمْ يُنْجِزِ الكَاتِبُ ولا كَتَب، وظَـلَّ عَـلَى مَكْتَبِـهِ كُـلَّ نَــهَار، يَنْتَظِرُ ما يُسْفِرُ عَنْهُ القَرَار، ثُمَّ صَدَرَ القَرَارُ الـحَاسِم، مُوْصِياً بِمَنْحِ ثَلاثَةِ دَرَاهِم، وأَنْ تُشْرِفَ لَـجْنَةٌ عَلَى الكَاتِب، ولَـجْنَةٌ أُخْرَى عَلَيْها تُرَاقِب، عَلَى أَنْ تُـحَقِّقَ لَـجْنَةٌ مَعَهُ بِشِدَّة، لِكَوْنِهِ لَـمْ يُنْجِزْ طَوَالَ تِلْكَ المُدَّة.

ولَـمَّا انْتَـهَتِ المُسَاءَلَةُ والإِجْرَاءات، شَرَعَ الكَاتِبُ في إِنْجَازِ المُعَامَلات، فمَرَّتْ عَلَيْهِ حِسَابَاتُ اللِّجَان، فذُهِلَ مِنْ تَـكَالِيْفِها عَالِيَةِ الأَثْمَـان، وكَيْفَ أَنَّ صَرْفَ بِضْعَةِ دُرَيْــهِمَات، كَلَّـفَ الــخَزِيْنَةَ الآلافَ والمِئات، فحَمَلَ نَفْسَهُ وكُلُّهُ إِحْبَاط، ودَخَلَ عَلَى مُدِيْرِهِ بِرُقْرَاط، وأَنْشَدَهُ وهوَ بَيْنَ عِـصَابَتِه، وفي يَدِهِ وَرَقَةُ اسْتِقَالَتِه:

بُرُقْـــرَاطُ اسْـــتَمِعْ مِنِّـــي فَـــإِنِّي ... رَأَيْتُـــــكَ أَحْمَـــــقَ الآرَاءِ خِبّـــــا

عَـــــلَى أَنِّي عَلِمْتُـــــكَ لا تُبَـــــالِي ... وَلا تَرْجُـــو مِـــنَ الآسِـــيْنَ طِبّـــا

وَلَكِنِّـــي سَأُسْـــمِعُكَ احْتِقَـــانِي ... وَأَشْـــفِي مِنْـــكَ قَافِيَـــةً وَقَلْبـــا

سِـنُوْنَ مَـضَتْ وَأَنْـتَ تَظُـنُّ وَهْمـاً ... بِأَنَّـــكَ أَكْمَـــلُ الأَقْـــوَامِ لُبّـــا

وَلَـسْتَ سِـوَى غَبِـيٍّ حَالَفَتْـهُ ... حُظُـوْظٌ فَـارْتَقَى فِي الأَمْـرِ صَـعْبا

فَعَطَّلْـــتَ المَـــصَالِحَ فِي لِـــجَانٍ ... تُـصَيِّرُ أَسْـمَحَ الـحَاجَاتِ كَرْبـا

تَـــمُرُّ بِـــهَا الـسِّنُوْنَ ولا نَجَـازٌ ... فَكَمْ خَصْبٍ بِـهَا قَـدْ صَـارَ جَـدْبا

أَمِـــنْ أَجْـلِ اعْتِـــمَادِ دُرَيْـــهِماتٍ ... تُبِـيْحُ خَزِيْنَـةَ الـسُّلْطَانِ نَـــهْبا؟!

تُقِـــرُّ لَـــهَا الـــدَّرَاهِمَ وَافِـــرَاتٍ ... وَفِي إِقْـرَارِ نَـــزْرِ المَـالِ تَـأْبى؟!

وَتُـــصْدِرُ فِي مُعَـــاقَبَتِي قَـــرَاراً ... كَـأَنِّي جِئْـتُ فِي التَّـأْخِيْرِ ذَنْبـا؟!

فَلَـوْ يَـدْرِي بِـكَ الـسُّلْطَانُ يَوْمـاً ... لَـــجَرَّكَ فِي حِبَـالِ الـسُّخْطِ كَلْبـا

فَخُـذْ مِنِّـي مَقَـالاً سَـوْفَ يَبْقَـى ... وَيَـذْهَبُ فِي الـوَرَى شَرْقـاً وَغَرْبـا:

وَرَبِّي لَـمْ يَكُـنْ فِي النَّـاسِ حَمْقَـى ... بِـــأَحْمَقَ مِـــنْ بُرُقْـــرَاطٍ وَأَغْبَـــى

٦ - «أَحْيَلُ مِنْ مَصْرِف»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ بَـرَعَ في الـخِدَاع، ثُمَّ فَـتَكَ بِضَحَايَاهُ فَتْـكَ الـسِّبَاع، وكـانَ يُظْهِـرُ اللِّـيْنَ والابْتِسَام، وهوَ في بَاطِنِهِ أَلَدُّ الـخِصَام، والمَصْرِفُ مَكَـانٌ لِـحِفْظِ الوَدَائـع، ومَرْتَـعٌ تُعْتَـسَفُ فيـهِ الشَّرَائع، يُغْـرِي المَسَاكِيْنَ بِالتَّـسْهِيْلاتِ والعُـرُوْض، ويُـوْقِعُهُمْ في حَبَائـل التَّقْـسِيْطِ والقُـرُوْض، ويُـحَلُّ فيهِ الرِّبا بِاسْمٍ مُـخْتَلِف، ولهُ لِـجَانٌ تُقِرُّهُ وتَغْتَرِف.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً مِنَ الأَخْيَار، أَوْقَعَهُ سُوْءُ حَظِّهِ عَلَى سِمْسَار، وكانَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ بَعْـضُ المَال، ويَرْغَبُ في تَنْمِيَتِهِ في الـحَلال، فلَمْ يَسْتَثْمِرْ مَالَهُ في المَصَارِف، وهوَ لأَنْـوَاعِ تَلاعُبِهـا عَـارِف، ولَـمْ يَكُنْ يُقْبِلُ عَـلَى مَـشْرُوْع، ولا يُغَـامِرُ في مُبَـاحٍ ولا مَمْنُـوْع، حتَّـى يَـخْتَبِرَ الوَسِـيْطَ والتَّـاجِر، ويَتَحَقَّقَ مِنْ طَهَارَةِ المَظَاهِر، فتَعَرَّفَ عَلَى سِمْسَارٍ مَعْـسُوْلِ اللِّـسَان، يُبَـادِرُ إلى الـصَّلاة مَـعَ الأَذَان، ثُوْبُهُ لَـمْ يُـجَاوِزْ قَدَمَه، وسِوَاكُهُ لا يُفَارِقُ فَمَه، دَائِمُ الذِّكْرِ والاسْتِغْفَار، ولَهُ لِـحْيَةٌ ووَقَار، فأَلْـهَاهُ المَظْهَرُ عَنِ المَخْبَر، ووَقَعَ فِيْما كانَ يَـحْذَر، فَما لَبِـثَ السِّمْـسَارُ أَنْ نَـصَبَ شَـبَكَتَه، وأَغْـرَى بِزَائـفِ العُرُوْضِ سَمَكَتَه، ومِنْ فَوْرِهِ عَـرَضَ عَلَيْهِ مُسَاهَمَة، وأَقْسَمَ لَهُ أَنْ يُضَاعِفَ دَرَاهِمَه، وسَـاقَ لَـهُ مِـنْ هَوْلِ الكَلام، ما يُغْرِي أَدْهَى الأَنَام، وحِيْنَ أَطْرَقَ الرَّجُلُ في هَوْلِه، أَرْدَفَ السِّمْسَارُ بِقَوْلِه:

يا أَخي في الله، إنَّ الصِّدْقَ مَنْجَـاة، وأَنـا لا أُصْـفِيْكَ إلاّ النُّـصْح، ولا أَرْجُـو مِنْـكَ أَيَّ رِبْـح، فاسْمَعْ وُقِيْتَ ضَيْرا، وجَزَاكَ اللهُ خَيْرا، إنَّ المُسَاهَمَةَ تِلْكَ ذَاتُ جَـدْوَى، وقَـدْ أَصْـدَرَ العُلَـمَاءُ فِيْهـا فَتْوَى، كَما أَنَّـها مَدْعُوْمَةٌ مِنَ الكُبَرَاء، وعِلْيَةُ القَوْمِ فِيْها شُرَكَـاء، والقَـائمُوْنَ عَلَيْهـا رِجَـالٌ أَكَـارِم، مِنْهُمْ أَبُو عِكْرِمَةَ وأَبُو عَكَارِم، ولِذا هِيَ مَأْمُوْنَـة، وأَرْبَاحُهـا مَـضْمُوْنَة، وثَمَّـةَ آخَـرُوْنَ يَـحْلُمُوْنَ

بِاغْتِنَامِها، ولَكِنَّها أَوْشَكَتْ عَلَى تَـمَامِها، ولَـمْ يَبْقَ فِيْها غَيْرُ أَسْهُمٍ قَلِيْلَة، والنَّاسُ تَبْذِلُ في اقْتِنَاصِـها الـحِيْلَة، وقَدْ بَقِيَ عَلَى إغْلاقِها يَوْمَان، فبَادِرْ إلى اغْتِنَامِها واللهُ المُسْتَعَان، ولَوْلا أَنَّنِي أَحْبَـبْتُكَ في اللهِ العَظِيْم، لَعَـرَضْتُها عَلَى غَيْرِكَ يا أَخِي الكَرِيْم، فائْـذَنْ لي بِالانْـصِرَافِ الآن، لأَنَّنِـي أَسْـمَعُ صَـوْتَ الأَذَان، وأَخْشَى أَنْ أَتَأَخَّرَ عَنِ الصَّفِّ الأَوَّل، ويَفَوْتَنِي مِنَ اللهِ الأَجْرُ الأَجْزَل، فقَدْ صَـحَّ في ثَابِـتِ المَرْوِيَّات، عَنِ الرِّجَالِ الأَفَاضِـلِ الثِّقَـات، أَنَّ نَبِيَّنَـا صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وسَـلَّم، خَـصَّ الـصَّفَّ الأَوَّلَ بِالفَضْلِ الأَعْظَم، ولَعَلَّكَ تُوَافِيْنِي بِالمَالِ هُنَاك، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُسَدِّدَ خُطَاك.

فوَضَعَ الرَّجُلُ مَالَهُ مَعَ الـخَبِيْث، وحَدَثَ ما لا يَـحْتَاجُ إلى حَدِيْث، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ أَهْـلَ الـدِّيْنِ والفَضْل، فأَخْبَرُوْهُ عَنْ خُلُقِهِ الـخَسِيْسِ الرَّذْل، وأَنَّهُ مُتَسَلِّقٌ عَلَى الدِّيْن، ولَيْسَ بِثِقَةٍ ولا أَمِـيْن، ثُـمَّ حَذَّرُوْهُ مِنَ الانْخِدَاعِ بِالأَشْكَال، وبِخَاصَّةٍ فِـيْما يَتَعَلَّـقُ بِالمَـال، فمَـضَى والـحَسْرَةُ مِـلْءُ أَحْـشَائه، وأَنْشَدَ وهوَ في غَمْرَةِ اسْتِيَائه:

تَـــجَافَيْتُ عَـــنْ مَـصْرِفٍ مَـاكِرٍ ... لِعِلْمِـــي بِـــأَنْوَاعِ حِيْلاتِـــهِ

يُـــرَابِي وَتُفْتِـــي لَـــهُ لَـــجْنَةٌ ... يَـــجُوْدُ عَلَيْهَـــا بِـــشَيْكَاتِهِ

يُـحَيِّـــيْكَ إنْ جِئْـتَ في حَاجَـةٍ ... وَفِيْـــكَ لَـــهُ كُـــلُّ حَاجَاتِـــهِ

تُرِيْـــكَ الأَمَـــانَ ابْتِـــسَامَاتُهُ ... وُكُـــلُّ الأَذَى في ابْتِـــسَامَاتِهِ

فَـإِنْ نَـالَ مِنْـكَ الـذي يَـشْتَهِي ... أَرَاكَ فُنُـــــوْنَ قَذَارَاتِـــــهِ

فَمَـــنْ ذَا يُـــزَاحِمُ في مَـــوْرِدٍ ... وَقَـــدْ ذَاقَ كَـــأْسَ مَرَارَاتِـــهِ؟!

فَأَلْقَـــانِيَ الـــحَظُّ عِنْـــدَ امْـــرِئٍ ... يُـــخَبِّرُكَ الطُّهْـــرُ عَـــنْ ذَاتِـــهِ

قَـــصِيْرُ الإزَارِ لَـــهُ لِـــحْيَةٌ ... وَيَـــا مَـــا أُحَـــيْلَى عِبَارَاتِـــهِ

يُنِيْلُـــكَ خَـــالِصَ تَـــجْرِيْبِهِ ... وَيُـــصْفِيْكَ عَـــذْبَ مَـــشُوْرَاتِهِ

وَثِقْـــتُ بِظَـــاهِرِ تَدْلِيْـــسِهِ ... ولَـــمْ أَبْـــلُ بَـــاطِنَ نِيَّاتِـــهِ

فَـــأَحْرَزَ مَـــالِي وَوَلَّى بِـــهِ ... فَلِلَّـــهِ أَشْـــكُو خَـــسَاسَاتِهِ

لَقَـدْ كَـانَ أَحْيَـلَ مِـنْ مَـصْرِفٍ ... وَأَلْـــسَعَ مِـــنْ كُـــلِّ حَيَّاتِـــهِ

فَـتَـــبّاً لَـــهُ كَاذِبـــاً فَـــاجِراً ... يَـــرَى الـــدِّيْنَ ضِـــمْنَ تِـــجَارَاتِهِ

٧ – «أَرْخَصُ مِنْ دَال»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الشَّيْءِ المُمْتَهَن، حِيْنَ يَحُوْزُهُ الرَّعَاعُ بلا ثَمَن، والدَّالُ حَرْفٌ مُخْتَصَر، يَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ وأَثَر، وحامِلُهُ حَاصِلٌ عَلَى الدُّكْتُوْرَاه، بَعْدَ أنْ أَفْنَى في تَحْصِيْلِها صِبَاه.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً جَدَّ في تَحْصِيْلِه، ورَضِيَ مِنَ العَيْشِ بِقَلِيْلِه، فعُيِّنَ في جَامِعَتِهِ مُعِيْدا، وسَلَكَ في العِلْمِ دَرْباً مَدِيْدا، وقَنِعَ مِنَ المَالِ بِالنَّـزْر، وفازَ أَتْرَابُهُ بِجَزْلِ الأَجْر، وبَقِيَ عَلَى حَالَتِه، يَعْمَلُ في رِسَالَتِه، ويُنْجِزُ مَرْحَلَةً تِلْوَ مَرْحَلَة، حَتَّى وَصَلَ لِمَا سَارَ لَه، بَعْدَ سِنِيْنَ عِجَاف، رَضِيَ فِيها بِالكَفَاف.

وحينَ ذاقَ الوَبَال، وأَصْبَحَ ذَا دَال، سَمِعَ عَنْ أُناسٍ تَدَكْتَرَت، وفي حَلْبَةِ الزَّهْوِ تَبَخْتَرَت، ونَالَتْ مِنَ الشَّهَادَةِ مُنَاها، بَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاها، فسَأَلَ عَنِ الحَاصِل، فأُخْبِرَ بالمَهَازِل، واتَّضَحَ لَهُ أَنَّ تِلْكَ الفِئة، حَصَلَتْ عَلَى مِئةٍ مِنْ مِئة، وتَقْدِيْرُهُمْ مِنْ قَبْلُ مَقْبُوْل، ولا تَكَادُ تَرْقَى بِهِمْ عُقُوْل، وأَنَّ جِهَاتِهِمُ المَانِحَة، عَقَدَتْ مَعَهُمْ صَفْقَةً رَابِحَة، وحَلُّوا كِيْسَهُمُ المَرْبُوْط، فقُبِلُوا بلا شُرُوْط.

فزَفَرَ صَاحِبُنا وشَهَق، وقَرَّبَ اليَرَاعَ والوَرَق، ثُمَّ اسْتَلْهَمَ مُعَانَاتَهُ واسْتَحْضَر، وكَتَبَ بَعْدَما اسْتَعْبَر:

ثَمَانِ سِنِيْنَ اقْتَدْتُ فِيْهَا مَطَامِحِي ... وَكُنْتُ بِهَا في أَسْوأِ الحَالِ وَالبَالِ

أُصَرْصِرُ أَقْلامِي وَأَحْشُو دَفَاتِرِي ... وَأَسْهَرُ حَتَّى يَسْأَلَ النَّجْمُ عَنْ حَالي

أَخُطُّ وَأَمْحُو، ثُمَّ أُطْرِقُ مُتْعَباً ... وَأَنْهَضُ وَالإعْيَاءُ يُنْهِكُ أَوْصَالي

أُرَاسِـــلُ مُهْتَـــمّاً، وَأَسْـــأَلُ عَالِـــماً — وَأَبْـــذِلُ في نَيْـــلِ المَرَاجِـــعِ أَمْـــوَالي

إذا أَبْـصَرَتْ أُمِّـي عَنَـائي تَـحَـسَّرَتْ — وَقَالَـتْ: شَـفَاكَ اللهُ يـا وَلَـدي الغَـالي

وإنْ أَبْصَرَتْني زَوْجَتِي صَرَخَـتْ أَسـىً — وَقَالَتْ: إلامَ العَيْشُ مِنْ دُوْنِ أَطْفَـالِ؟

فـأُعْرِضُ عَـنْ هَـذِي وَتِلْـكَ، وأَنْثَنِـي — أُسَـطِّرُ أَحْلامِـي، وَأَرْسِـمُ آمَـالي

إلى أَنْ تَـــرَاءَى لِي المُـرَادُ، وَطَـابَ لِي — قِطَـافٌ أَرَاني الوَيْـلَ حَتَّـى تَـسَنَّى لي

فَلَـمَّا تَدَكْتَـرْتُ انْفَجَعْـتُ بِثُلَّـةٍ — أَبَاحَتْ حِمَى التَّعْلِيْمِ في حِصْنِهِ العَالي

أَغَارُوا عَلَى الدَّالاتِ كَالقَمْلِ حِيْنَمَـا — يُغِيْرُ عَلَى المَجْرُوْبِ في غَفْلَـةِ الفَـالي

وَفَـتَّحَتِ الآمَـالُ أَبْوَابَـهَا لَـهُمْ — وَلا عَجَـبٌ! فَالمَـالُ فَـتَّاحُ أَقْفَـالِ

تَدَاعَوْا، ولَـمْ يَثْنُـوا إلى الـدَّرْسِ رُكْبَـةً — وَمَـا قَـرَؤوا إلا رَسَـائِلَ جَـوَّالِ

وَنَـالُوا مُنَـاهُمْ في لَيَـالٍ سَرِيْعَـةٍ — كَأَنَّـهُمُ مِـنْ حَلْبَـةِ السَّبْقِ في (رَالي)

وَتَـاهُوا، فَـإِنْ نَـادَيْتَهُمْ دُوْنَ دَالِـهِمْ — رَمَـوْكَ بِطَـرْفِ المُسْتَقِلِّ لَـكَ القَـالي!

فَقُلْـتُ: وَرَبِّي لا رَفَعْـتُ شَـهَادَةً — يُبَاهِي بِـهَا في النَّاسِ مَـنْ عَقْلُـهُ خَـالي

خُذُوْهَا وَأَعْطُونِي سِنِيْنِي التـي مَـضَتْ — ورُدُّوا عَـلَيَّ الجَهْـلَ.. إنِّي لَـهَا سَـالي

مِـنَ العَـارِ أَنْ تَـأْوِي إلى الـوَكْرِ قَمْلَـةٌ — وَيَقْبَـعَ صَـقْرٌ فَـوْقَ هَامَـةِ مِتْفَـالِ

فَـلا شَيْءَ أَسْـمَى مِـنْ إبَـاءٍ مُـمَنَّعٍ — وَأَهْوَنُ مِنْ قَمْـلٍ، وَأَرْخَـصُ مِـنْ دَالِ

٨ – «أَشْفَعُ مِنْ وَاو»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في كَثِيْرِ الشَّفَاعَة، وَاجِبِ التَّقْدِيْرِ والإطَاعَة، و(وَاوٌ) اسْمُ رَجُلٍ مِنَ العَمَالِيْق، يُقَالُ إنَّهُ يَفْرِجُ الضِّيْق، وهوَ مِنْ عِلْيَةِ القَوْم، ولَهُ نَسْلٌ إلى اليَوْم.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ (وَاواً) زادَ عَلَى قَوْمِهِ ضَخَامَة، وكَانَتْ لا تَصِلُ إلى قَامَتِهِ قَامَة، وبَلَغَ طُوْلُهُ مِئَةَ ذِرَاع، ويَمْلِكُ أيْضاً الدِّيَارَ والضِّيَاع، وحُكِيَ أنَّهُ يَصْرَعُ الفِيْلَ بِاللَّمْس، ثُمَّ يَشْوِيْهِ عَلَى الشَّمْس، وإذا ظَمِئَ شَرِبَ بَحْرا، ومَتَى احْتَقَنَ أَفْرَزَ نَهْرا.

فكَانَتِ الجَمَاعَاتُ حَوْلَهُ تُقِيْم، وتَلتَمِسُ فَضْلَ خَيْرِهِ العَمِيْم، وتُطِيْعُه لِحِمَايَتِه، ومَخَافَةِ جِنَايَتِه، فلَمْ يَكُنْ يُرَدُّ لهُ مَطْلَب، ولا لِعَاصِيْهِ مِنْهُ مَهْرَب، وبَقِيَتْ لهُ ذُرِيَّة، مُنْتَشِرَةً في البَرِيَّة، ما لَهَا عُشْرُ ضَخَامَتِه، ولا هُطُوْلُ غَمَامَتِه، فلَمَّا هَلَكَ وبَاد، ونُصِبَتْ فَوْقَهُ الأَوْتَاد، وَجَدُوا عَلَى دَارِ وُجُوْمِه، شِعْراً لأَحَدِ خُصُوْمِه:

أَيَا (وَاوُ) خَبِّرْنِي عَنِ المَوْتِ وَالبِلَى	وَعَنْ مَجْدِكَ الفَانِي وَعَنْ قَبْرِكَ الخَاوي
لَقَدْ كُنْتَ في الأَقْوَامِ حَيّاً مُعَظَّماً	وَهَا قَدْ طَوَاكَ اليَوْمَ عَنْ عَيْشِنَا طَاوي
قَهَرْتَ رِجَالاً، وَاغْتَصَبْتَ حُقُوْقَهُمْ	وَنِلْتَ الذي لَمْ يَحْوِهِ في الوَرَى حَاوي
وَقَسَّمْتَ خَيْرَ الأَرْضِ قِسْمَةَ جَائرٍ	فَأَشْبَعْتَ مَنْ تَهْوَى، وَمَاتَ بِكَ الطَّاوي
تَشَفَّعْتَ في الأَدْنَيْنَ حَتَّى رَفَعْتَهُمْ	وَأَمَّا سِوَاهُمْ فَالرَّجَاءُ بِهِمْ هَاوي

لَقَدْ جُرْتَ حَتَّى قِيْلَ: يَـا هَـوْلَ جَـوْرِهِ   وَحَابَيْتَ حَتَّى قِيْلَ: أَشْـفَعُ مِـنْ (وَاوِ)

فَأَيْنَ الذِيْنَ اليَـوْمَ تَرْقُـبُ حَــمْدَهُمْ؟   لَقَدْ ذَهَبُوا وَاسْتَخْلَفُوا حَوْلَكَ العَـاوِي

٩ – «أَشْكَلُ مِنْ حَدَاثِيّ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ كَثُرَتْ طَلاسِمُه، وأَشْكَلَتْ عَلَى الأَفْهَامِ تَـمَاتِــمُه، والــحَدَاثِيُّ رَجُـلٌ لا يَعِي ما يَقُوْل، ولا تَصِلُ إلى هَذْرِهِ العُقُوْل، يَكْتُبُ لِنَفْسِه، ويَتَـبَرَّأُ مِنْ أَمْسِه، كَثِيْرُ الانْتِقَادِ والضَّجَر، ويَـرَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ البَشَر، نَاقِدُهُ في رَأْيِهِ رَجْعِيّ، وهوَ بِطَبْعِهِ نَفْعِيّ.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ شَابّاً أَحَبَّ الأَدَب، وبَذَلَ في جَنْيِ رَحِيْقِهِ ودَأَب، فمَرَّ عَلَى جُمْلَةٍ مِـنَ الأَعْـلام، وأَخَذَ عَنْهُمْ ما يَرْوِي الأُوَام، فما انْكَفَأَ عَلَى مَذْهَب، ولا اكْتَفَـى مِنْـهُ بِمَـشْرَب، فجَمَـعَ مِـنَ الأَدَبِ المَحَاسِن، وانْتَقَى مِنَ المَـنَاجِمِ المَعَادِن، فسَمِعَ عَنْ رَجُلٍ وَاسِعِ الذِّكْر، لَهُ مُصَنَّفَاتُ نَقْدٍ وشِعْر، فأَمَّهُ وقَصَدَه، وأَعْلَمَهُ مَقْصَدَه، والْتَـمَسَ مِنْهُ الوِفَادَة، وتَـحْـصِيْلَ الإفَـادَة، فـما لَبِـثَ الرَّجُـلُ أنْ رَمَقَـهُ شَزْرا، وأَطْرَقَ مَرَّةً وصَعَّدَ أُخْرَى، ثُمَّ اسْتَرْسَلَ يَقُوْل، وفي الفَرَاغِ يَـجُوْل:

يَـجِبُ أَوَّلاً أَنْ تَـتَخَلَّصَ مِنَ الرُّفَات، وتَنْقَطِعَ عَـنْ شُـيُوْخِكَ النَّكِـرَات، وتَـمْـسَخَ أَفْكَـارَكَ البَالِيَة، وتَـتَجَرَّدَ مِنْ أَنَاكَ العَالِيَة، فحِيْنَ تَـتَــبَلْوَرُ في بَوْتَقَـة، سَـتُدْرِكُ الـسِّيَاقَاتِ والأَنْـسِقَة، ولَـنْ يَكُوْنَ لَكَ صِيْت، قَبْلَ أَنْ تَفْهَمَ التَّفْتِيْت، ولا غِنىً لَكَ عَنِ التَّمَظْهُـر، وحَـلِّ شَـفْرَةِ (الــهَمْبُرْغُر)، فكُـلُّ المَــنَاهِجِ التَّارِيْــخَانِيَّة، تُعْوِزُهَـا الدِّيْنَامِيْكِيِّـة الظَّاهِرَاتِيَّـة، ومُؤَسِـــسُ سُـلْطَتِهَا شَـطَح، في إسْقَاطَاتِ المُصْطَلَح، ولا سِيَّـما أنَّ النَّاقِدَ (فِيْبَـرِغْلاس)، لَـمْ يَطَّلِعْ عَلَى نَظَرِيَّةِ هِيْمُوْرَاس، وظَـلَّ في صِرَاعٍ مُشْتَبِك، مَعَ الرِّوَائيِّ (مُوْفِنْ بِك)، ومَعَ أَنَّـهُما أَفَادَا مِـنَ التَّـشَكُّلاتِ الإمْبِرْيَاقِيَّـة، إلاّ أَنَّــهُما يَفْتَقِرَانِ إلى الشَّفَافِيَّة، ولَـهُما مِنْ (كِرِسْتِيَنْ دُيُوْر)، مَوْقِفٌ تَأَزُّمِيٌّ مَشْهُوْر، فَالسِّيْمِيُوْطِيْقِيَا في رَأْيِــهِما مُؤَشِّرَات، وهَذَا هُوَ رَأْيُ (دَانْكِنْ دُوْنَات)، ومَهْمَا يَكُنْ بَيْنَهُمْ مِنِ انْشِطَاح، فهُمْ يَتَّفِقُـوْنَ عَـلَى مَبْـدَأِ

الانْـزِيَاح، مَعَ أنَّ الُمـتَخَيَّلَ النَّصَّانِيّ، يَتَقَاطَعُ مَعَ التَّمَحْوُرِ الزَّمَكَانِيّ.[١]

وما زَالَ الرَّجُلُ يَبْـرِمُ ويَفْتُل، ويَمُطُّ شِدْقَيْهِ ويَسْعُل، ويَرْفَـعُ نَظَّارَتَـهُ ويَـضَع، ويَـشْبِكُ يَدَيْـهِ ويَدَع، والفَـتَى أَثْنَاءَ ذَلِكَ يُبْدِي سَأَمَه، ويَفْغَرُ في وَجْهِ الشَّيْخِ فَمَه، فَمَا أَحَسَّ بِهِ ولا دَرَى، إلاّ حِيْنَ فَارَقَهُ وجَرَى، ولَـمَّا خَفَّ عَنْهُ الذُّهُوْل، أَنْشَأَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُوْل:

أَلْقَـانِيَ الـرَّأْيُ التَّعِـيْسُ عَـلَى امْـرِئٍ   تَـــتَنَافَرُ الكَلِـــمَاتُ في أَوْصَـــافِهِ

خَـــالِي الفِنَـــاءِ مُرِيْبَـــةٌ لَفَــــتَاتُهُ   مُـسْتَوْحِشُ النَّظَـراتِ مِــنْ أَضْـيَافِهِ

لازَمْتُـــهُ أَبْغِـــي جَنَـــاهُ فَخَـــصَّنِي   بِحَـــدِيْثِ مَـــسْلُوْبِ الإِرَادَةِ تَافِـــهِ

أَرَأَيْـــتَ أَشْـــكَلَ مِــــنْ حَـــدَاثِيٍّ إذا   لاكَ الكَــلامَ، وَهَــزَّ مِــنْ أَعْطَافِــهِ؟

يَـــهْذِي بُمُلْتَـبِسِ الكَـلامِ، فَقُـلْ لِمَـنْ   رامَ التَّـــشَعْوُذَ وَالكَهَانَـــةَ: وَافِـــهِ

لَـوْ لَـــمْ أَقُـلْ وِرْدِي غَـدَاةَ أَتَيْتُـهُ   لَـــخَرَجْتُ مَـــحْمُوْلاً عَـلَى أَكْتَافِـهِ

لَـــمْ أَدْرِ مَـا مَغْـزَاهُ مِـنْ تَـــمْطِيْطِهِ   شِـــدْقَيْهِ وَهْـــوَ يَلُـــجُّ في إِرْجَافِـــهِ

يَزْهُـــو بِمُـــصْطَلَحَاتِهِ، وَيَـــسُوْقُ لِي   أَعْلامَهَـــا، وَيَـــحُطُّ مِــنْ أَسْـــلافِهِ

وَشْـــيٌ مِــنَ التَّغْرِيْـبِ مُلْتَحِـفٌ بِـهِ   وَيَظُـنُّ أنَّ الـوَعْيَ تَــحْتَ لِــحَافِهِ

قَـــدْ حَيَّـــرَتْنِي مِنْـــهُ كُـــلُّ عِبَـــارَةٍ   وَعَيِـــيْتُ كُـلَّ العِـيِّ عَـنْ أَهْدَافِـهِ

---

(١) قَالَ الرَّاوِي: أَقْحَمَ الـحَدَاثِيُّ الأَسْمَاءَ الُمحَاطَةَ بِقَوْسَيْنِ تَـمَادِياً في الاسْتِعْرَاض، وإلاّ فهِيَ أَسْـمَاءٌ أَجْنَبِيَّـةٌ لِـبَعْضِ الأَطْعِمَة، والُمنْتَجَاتِ التِّجَارِيَّة.

١٠ – «أَضْيَعُ مِنْ رَاتِب»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ بَلَغَ بِهِ الضَّيَاعُ مُنْتَـهَاه، وتَـبَدَّدَتْ عَلَى دُرُوْبِ حَاجَاتِـهِ خُطَـاه، والرَّاتِـبُ مَالٌ يُقْبَضُ كُلَّ شَهْر، يَـحْصُلُ عليهِ العَامِلُ نَظِيْرَ أَجْر، ولا يَكَادُ يُغْنِي مِـنْ جُـوْع، ويَتَــبَدَّدُ في أَوَّلِ أُسْبُوْع.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً كَانَ يُنْجِزُ مُعَامَلَة، فلَقِيَ مِـنَ العَـامِلِيْنَ أَسْـوَأَ مُعَامَلَـة، هَـذَا يُبْعِـدُ عَنْـهُ ويُشِيْح، وذَاكَ يَعْـبِسُ بَوَجْـهٍ قَبِـيْح، وثَالِـثٌ يَــهُشُّ بِالـصَّحِيْفَةِ مُرَاجِعَـه، وهـوَ يَــحُلُّ الكَلِـمَاتِ الـمُتَقَاطِعَة، ورَابِـعٌ يَعْتَـذِرُ بِالانْـشِغَال، وهـوَ يَــهْمِسُ بِــهَاتِفِهِ الــجَوَّال، وخَـامِسٌ مـا لَـهُ عَـنِ الـحَاسُوْبِ الْتِفَات، وهوَ غَارِقٌ في مَوَاقِعِ المُحَادَثَات.

حَتَّى إذا طَافَ بِالمَبَانِي والمَكَاتِب، وعَادَ مِنْ حِيْثُ أَتَـى كَالـخَائب، أَشَـارَ عَلَيْـهِ مُــحِبُّوْه، بِـما أَوْصَاهُ بِهِ أَبُوْه، فتَذَكَّرَ مُوَظَّفاً في الدَّائرَة، قَدْ أَرْضَعَتْهُ جَدَّتُهُ العَاشِرَة، فقَصَدَهُ وحَيَّاه، وَأَخْبَـرَهُ عَـنْ مَسْعَاه، فما عَادَ إِلَيْهِ لَـمْحُ طَرْفِه، إلاّ ومُعَامَلَـتُهُ مُنْجَزَةٌ في كَفِّه، ثُمَّ أَنْشَدَه، حِيْنَ أَنْجَدَه:

رَمَتْنِــي الـــحُظُوْظُ عَــلَى عُــصْبَةٍ	تُـصَعِّبُ مِــنْ مَطْلَبِــي كُــلَّ هَــيْنْ
أُطَـــــارِدُهُمْ وَاحِـــــداً وَاحِـــــداً	وَأَرْجِـــعُ مِـــنْهُمْ بِخُفَّـــي حُنَـــيْنْ
فَمُــذْ أَفَـلَ الفَــأْلُ عَــنْ مَطْلَعِــي	وَعُـدْتُ كَـمَا جِئْـتُ صِـفْرَ اليَـدَيْنْ
قَــــصَدْتُكَ مُلْتَمِـــــساً نَخْــــوَةً	رَضَـعْنَا بِـــهَا في الـصِّبَا رَضْـعَتَيْنْ
فَــــأَنْجَزْتَ لِي مَطْلَبـــــاً هَـــــدَّنِي	وَأَنْــهَيْتَ مَـسْعايَ في لَــمْحِ عَـيْنْ

وَقَــدْ كُنْــتُ أَضْــيَعَ مِــنْ رَاتِــبٍ   تَفَــرَّقَ بَــيْنَ مُكُــوْسٍ ودَيْــنْ

فَــــشُكْراً لِـــــجَدَّتِنا مَــــرَّةً   وشُــــكْراً لأَثْــــدَائها مَــــرَّتَيْنْ

١١ – «أَغْدَرُ مِنْ كُرْسِيّ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ غَرَّهُ المَنْصِبُ المُؤَقَّـت، فـشَقَّ عَـلَى مَـنِ اسْـتُؤْمِنَ عَلَـيْهِمْ وأَعْنَـت، وراحَ يُسِـيْءُ ويَبْطِش، ويَلْكُمُ هَذا ويَـخْدِش، والكُرْسِيُّ مَنْصِبٌ دَوّار، لَيْسَ لَهُ قَرَار.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ مُوَظَّفاً غَبَنَهُ مُدِيْرُهُ الـجَدِيْد، اللابِسُ وَهْماً حِلْيَةَ هَـارُوْنَ الرَّشِـيْد، فـزادَ عَلَيْـهِ المَشَقَّة، وسَلَبَهُ كَرَامتَهُ وحَقَّه، ومَارَسَ مَهَامَّ الـخُلَفَاء، فنَـهَى وأَمَرَ بِما شَاء، وتَعَـسَّفَ في القَـرَارَاتِ والأَوَامِر، وأَهَـانَ أَكَـابِرَ القَـوْمِ والأَصَـاغِر، وجَعَـلَ العَـامِلِيْنَ في احْتِـدَام، وأَوْقَعَهُـمْ في تَـحَزُّبٍ وصِدَام، ولَـمْ يَعْتَدَّ إلا بِمُشَابِـهِيْهِ في العُنْـف، وأَزْرَى بِمَـنْ طَـابَعُهُمُ اللِّـيْنُ واللُّطْـف، ووَصَـمَهُمْ بِالإهْمَالِ والرَّخَاوَة، ورَأَى أنَّ التَّمَيُّـزَ في القَسَاوَة، وهوَ مَعَ تَشَدُّقِهِ بِالأَنْظِمَةِ حِـيْنَ يُوَاجَـه، يَتَحَايَـلُ عَلَيْها بِمَـا يُوَافِقُ مِزَاجَه، فكَمْ حَابَى عُصْبَـتَهُ العَنِيْفَة، وكَمْ حَبَا سِوَاهُمْ تَطْفِيْفَه، وقَدْ غَـابَ عَنْـهُ أنَّ كُرْسِيَّهُ هَشّ، وأَنَّهُ سَيَجْلِسُ بَعْدَهُ عَلَى قَشّ، وحِيْنَئِذٍ يَـجْنِي الشَّوْكَ زَارِعُـه، ويَنْـدُبُ ثَـوْبَ المُـرُوْءَةِ خَالِعُه.

وما هِيَ إلا شُهُوْرٌ ولَّتْ مُدْبِرَة، حَتَّى رُكِلَ المُدِيْرُ عَـلَى المُـؤَخِّرَة، فعَـادَ لا هَيْبَـةَ لَـهُ ولا قِيْمَـة، وانْفَضَّتْ عَنْهُ عُصْبَتُهُ اللَّئِيْمَة، وصَارَ لِـمَا هُوَ فِيْهِ مِنْ إيْـحَاش، يُنَـاجِي عَامِـلَ الـصِّيَانَةِ والفَـرَّاش، وكَمْ شُوْهِدَ وهوَ يَـهُشُّ الذُّبَاب، ويَعْبَثُ بِأَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ احْتِسَاب.

وقَبْلَ أَنْ يُـخْلَعَ المُدِيْرُ مِنْ مَنْصِبِه، رَأَى المُوَظَّفُ أَنْ يَـخُصَّهُ بِتَعَتُّبِـه، إذْ كَـانَ بَيْـنَهُما وُدٌّ قَـدِيْم، وقَدْرٌ مِنَ الإخَاءِ حَمِيْم، فانْدَفَعَ بِوَاجِبِ الصُّحْبَةِ المُضَاعَة، لِيُبَصِّرَهُ بِمَـا هُوَ فِيْهِ مِنْ بَشَاعَة، فنَظَمَ فِيْـهِ قَصِيْدَةً عَلَّهَا تُطِبُّه، وافْتَـتَحَها بِخِطَابِهِ بِمَا يُـحِبُّه، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ مَكْتَبَه، وأَنْشَدَهُ حِيْنَمَـا انْتَبَه:

حَنَانَيْكَ يَا ذَا المَجْدِ والجَاهِ والعُلا   وَيَا قَمَرَ الدُّنْيَا وَيَا مَطْلِعَ الشَّمْسِ

أَصِخْ لِصَدِيْقٍ لَمْ يَحُلْ عَنْ وَفَائهِ   ولَمْ يَنْسَ وُدّاً صَانَهُ لَكَ بِالأَمْسِ

رَأَيْتُكَ مَقْطُوْعاً عَنِ الرَّأْيِ سَادِراً   وَتَخْتَالُ في الأَنْحَاءِ مُنْتَفِخَ الرَّأْسِ

تُسِيْءُ إِلَيْنَا شَاتِماً وَمُلاسِناً   وَتَفْتِكُ فِيْنَا مِثْلَ عَنْتَرَةَ العَبْسِي

أَهَنْتَ شُيُوْخاً، وَاعْتَسَفْتَ أَحِبَّةً   وَطِشْتَ كَمَا قَدْ طَاشَ في يَدِكَ (البِبْسي)

فَقُلْتُ: صَدِيْقِي حَادَ عَنْ سَنَنِ الهُدَى   وَظَنَّ بِأَنَّ الثُّوْمَ أَحْلَى مِنَ الدِّبْسِ

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّقَّ زَادَ اتِّسَاعُهُ   وَأَصْبَحْتَ أَعْرَى مِنْ مُجَرَّدَةِ اللُّبْسِ

أَتَيْتُ أَقُوْلُ: اسْمَعْ نَصِيْحَةَ مُشْفِقٍ   أَتَاكَ مِنَ التَّعْجَالِ مُسْتَأْجِراً (تَكْسي)

تَنَبَّهْ فَمَا شَيْءٌ أَخَسَّ مِنَ الأَذَى   وَأَخْبَثَ مِنْ لُؤْمٍ وَأَغْدَرَ مِنْ كُرْسي

وَهَذَا ولَمْ تُمْنَحْ سِوَى بَعْضِ سُلْطَةٍ   فَكَيْفَ إذا الكُرْسِيُّ تَحْتَكَ قَدْ أُرْسي؟!

سَتَشْنِقُ مُسْتَاءً، وَتَصْلِبُ شَاكِياً   وَأَهْوَنُنَا سُخْطاً يُقَادُ إلى الحَبْسِ!

١٢ – «أَغْنَجُ مِنْ مِسْخ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيمَنْ تَـكَلَّفَ النُّعُوْمَة، وسَلَكَ في التَّمَايُعِ مَسَالِكَ مَذْمُوْمَة، والمِسْخُ جِـنْسٌ مِـنَ البَشَر، يَـجْمَعُ بَيْنَ الأُنْثَى والذَّكَر، وهوَ أَصْلاً فَتىً نَاقِصُ الرُّجُوْلَة، يُطِيْلُ أَمَامَ المِرْآةِ مُثُوْلَه، ويَلْـبَسُ أَضْيَقَ المَلابِس، ولأُخْتِهِ دَائماً يُنَافِس، وقَدْ يُطَوِّرُ في الغَنَجِ سُلُوْكَه، فَيُبْرِزُ وَجْهَهُ بِأَغْرَبِ سَكْسُوْكَة.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ رَجُلاً قَضَى عَلَيْهِ العَنَاء، أنْ يُـحَقِّقَ رَغْبَةَ أُخْتِـهِ الرَّعْنَـاء، وكَانَـتْ فَـتَاةً رَدِيْئَـةَ النَّصِيْب، وسَبَقَ أَنْ طَلَبَها أَكْثَرُ مِـنْ خَطِيْـب، فكَانَـتْ تُعْلِـنُ لأَهْلِها عَـنْ إحْجَامِهـا، لِكَـوْنِهِمْ لا يُشْبِهُوْنَ فَارِسَ أَحْلامِها، وأَنَّـها لا تَرْغَبُ أَنْ يَـجْمَعَها زِفَاف، إلاّ مَعَ مَنْ يُشْبِهُوْنَ نُجُوْمَ الغِـلاف، وبِخَاصَّةٍ مَنْ تَظْهَـرُ عَلَـيْهِمُ المُيُوْعَـة، ولَــهُمْ في الغِنَـاءِ أَعْـمَالٌ مَـسْمُوْعَة، فرَثَـى أَخُوْهـا لِرَغْبَتِها المَهْوُوْسَة، وخَافَ أَنْ تُدْرِكَ أُخْتَهُ العُنُوْسة، فطَافَ يَبْحَثُ عَمَّـنْ تِلْـكَ صِـفَاتُه، وطَـالَ في الرِّجَـالِ تَفَرُّسُهُ والْتِفَاتُه، فلَمْ يَـجِدْ في أُولَئِكَ طِلابَه، فَاسْتَشَارَ في الأَمْرِ أَصْحَابَه، فأَخْبَرُوْهُ أَنَّـهُمْ يَكْثُرُوْنَ في الأَمَـاكِنِ القَمِيْئَـة، وفي المَقَـاهي الـخَافِتَةِ والـشَّوَارِعِ المُـضِيْئة، ولا يَــخْرُجُوْنَ إلاّ في المَـسَاء، ولا يَكَادُوْنَ يُمَيَّـزُوْنَ عَنِ النِّسَاء.

ومِنْ فَوْرِهِ وَثَـبَ الأَخُ الـحَرِيْص، وبَعْـدَ طُـوْلِ بَحْـثٍ وتَـمْحِيْص، عَثَـرَ عَـلَى فَتـىً نَـاعِمِ الأَطْرَاف، وتَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مُعْظَمُ الأَوْصَاف، وكَانَ قَابِعاً في المَقْهَى وَحْدَه، يَـدْهُنُ بِــبَعْضِ المُرَطِّبَـاتِ جِلْدَه، ويَرْفَعُ بَعْضَ خُصُلاتِهِ عَنْ جَبِيْنِه، ثُمَّ اتَّكَأَ بِأَسْفَلِ فَكِّـهِ عَـلَى يَمِيْنِـه، وأَرْخَـى حِـزَامَ بِنْطَالِـهِ اللَّـزَّاز، وظَلَّ مُسْتَرْخِياً يُشَاهِدُ التِّلْفَاز، وأَثْنَاءَ انْسِجَامِهِ في المُشَاهَدَة، هَـزَّ عِطْفَيْـهِ ولَـوَّى سَـاعِدَه، وأَخَذَ يَتَـمَايَلُ مَعَ الأُغْنِيَة، وهوَ في حَالَةٍ مُنْتَشِيَة، ثُمَّ الْتَفَتَ في نُعُوْمَـةٍ واسْـتَدَار، واسْـتَدْعَى النَّـادِلَ

(كُوْمَار)، وطَلَبَ أَنْ يُغَيِّـرَ القَنَاة، وأنْ يُـحْضِرَ لهُ مِرْآة، فأَعَادَ تَنْعِيْمَ وَجْهِـهِ الـبَرَّاق، ثُـمَّ شَـكا إلى النَّادِلِ غَبَاوَةَ الـحَلاّق، وكَيْفَ أَنَّهُ لِقِلَّةِ خِبْرَتِه، كَادَ يَقُصُّ طَرَفَ طُرَّتِـه، وكَيْـفَ أنَّ خُـشُوْنَةَ يَدَيْـه، أَوْشَكَتْ أنْ تَـجْرَحَ خَدَّيْه، فنَظَرَ إليهِ النَّادِلُ بِازْدِرَاء، ثُمَّ تَـرَاجَعَ عَنْهُ إلى الوَرَاء.

وكَانَ الأَخُ يَتَـرَقَّبُ فُرْصَةً مُنَاسِبَة، لِكَي يُدَاخِلَهُ ويَـجْلِسَ جَانِبَه، وفَجْأَةً انْتَفَضَ الفَـتَى وثَار، لَـمَّا تَسَلَّـلَ إليهِ صُرْصَار، فانْتَـهَزَ عَجِلاً الفُرْصَةَ واغْتَنَم، ووَثَبَ يَسْحَقُ الصُّرْصَارَ بِالقَدَم، فـشَكَرَهُ الفَـتَى ودَعا لَه، وكَانَ مِنْ ضِمْنِ ما قَالَه:

يَا رَبِّ احْفَظْهُ مِنَ الـحَشَرَات، واحْـمِهِ مِـنَ القِـشْرَةِ والتَّـشَقُّقَات، وارْزُقْـهُ أَجْـمَلَ العُطُـوْرِ والأَصْبَاغ، وامْلأْ كُلَّ أَوْقَاتِهِ بِالفَرَاغ، ولا تَقْصِفْ يَا رَبِّ ظُفْـرَه، ولا تُـرِهِ في المَـنَامِ فَـأْرَة، وعَلِّمْـهُ الرَّقْصَ والسَّخَافَة، وزِدْ خَصْرَهُ نَحَافَة.

وكانَ الأَخُ وَاقِفاً في ذُهُوْل، ولا يَدْرِي مَاذا يَقُوْل، ومُذْ أَتَمَّ الـسَّخِيْفُ دُعَـاءهُ الـسَّالِف، هَـمَّ بِاحْتِضَانِ صَاحِبِنا الوَاقِف، فأَبْعَدَهُ عَنْهُ ودَفَعَه، ورَكَلَهُ حَتَّى أَوْقَعَه، وقَـالَ: تَـبّاً لَـكَ مِـنْ نَـاقِص، وخُنْفُسٍ مُقَزِّزٍ رَاقِص، ولَوْلا المَلامَةُ والتَّعْنِيْف، لأَدْخَلْتُ رَأْسَكَ في الكَنِيْف، أَلاَ سُحْقاً لِـجِنْـسِكَ المَمْسُوْخ، ولِصَدْرِكَ النَّاتِئِ المَنْفُوْخ، ثُمَّ جَذَبَهُ مِنْ سَلْسَالِه، وتَلَّهُ مِنْ حِـزَامِ بِنْطَالِـه، وقَذَفَـهُ خَـارِجَ المَكَان، وتَبِعَتْهُ مِنْهُ بَصْقَـتَان، وصَاحَ: العُنُوْسَةُ والبَوَار، ولا الاصْطِلاءُ بِالعَار.

وحِيْنَمَـا اشْرَأَبَّتْ نَفْسُهُ الـجَائشَة، أَقْسَمَ أنْ يُؤَدِّبَ أُخْتَهُ الطَّائـشَة، وأَخَذَتْـهُ نَـشْوَةُ المَرَاجِـل، فزَوَّجَها (كُوْمَارَ) النَّادِل، وقالَ لَـها: رَجُلٌ مُكْتَمِلٌ وَضِيْع، ولا خُنْفُسٌ ذُو حَسَبٍ رَفِيْع، ويَوْمَ لامَهُ أَبُوْه، أَنْشَدَ لا فُضَّ فُوْه:

فَدَيْتُكَ لا تَعْجَلْ بِلَوْمِيَ يَا أَبِي ... وَلِمْ أُخْتِيَ الرَّعْنَاءَ إنْ كُنْتَ لائِمَا

أَتَاهَا مِنَ الخُطَّابِ كُلُّ مُبَجَّلٍ ... فَلَمْ تَبْغِ إلاّ أَمْلَسَ الخَدِّ نَاعِمَا

يُغَنِّي، وَإنْ غَنَّتْهُ بَادَرَ رَاقِصاً ... وَيَشْهَقُ رُعْباً لَوْ رَأَى الفَأْرَ قَادِمَا

وَيَلْبَسُ بِنْطَالاً وَيَمْضَغُ عِلْكَةً ... وَيَكْسُو الحُلَى أَقْدَامَهَ وَالمَعَاصِمَا

فَطُفْتُ مَقَاهِي الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُهُ ... لِتِلْكَ الصِّفَاتِ الآنِفَاتِ مُوَائِمَا

وَأَمْعَنْتُ فِيْهِ الطَّرْفَ أَسْبُرُ نَوْعَهُ ... أَأُنْثَى أَرَى؟ لا، رُبَّمَا كُنْتُ وَاهِمَا!

وَرَاقَبْتُهُ كَي أَسْتَبِيْنَ فِعَالَهُ ... فَأَبْصَرْتُ مِنْهُ الفَاجِعَاتِ القَوَاصِمَا

تَسَلَّلَ صُرْصَارٌ إلَيْهِ فَرَاعَهُ ... وَأَجْرَى مِنَ البِنْطَالِ وَالعَيْنِ سَاجِمَا

فَلَمْ أَتْرُكِ الصُّرْصَارَ حَتَّى سَحَقْتُهُ ... فَأَغْنَمَنِي بِاسْمِ الدُّعَاءِ المَغَارِمَا

يَقُوْلُ: إلَهِي هَبْهُ عِطْراً وَصِبْغَةً! ... وَلا تُرِهِ فَأْراً مَتَى كَانَ نَائِمَا!

وَرَامَ احْتِضَانِي وَيْلَهُ مِنْ مُشَوَّهٍ ... فَقُمْتُ إلَيْهِ ضَارِباً فِيْهِ شَاتِمَا

وَأَقْسَمْتُ أَنْ أَقْتَادَ أُخْتِي لِمَا أَرَى ... فَزَوَّجْتُهَا وَافِي الرُّجُوْلَةِ حَازِمَا

وَوَاللهِ لا أَرْضَى لَهَا المِسْخَ سَيِّداً ... وَأَرْضَى لَهَا (كُوْمَارَ) لَوْ كَانَ خَادِمَا

لَعَمْرُكَ مَا الأُنْثَى تَذُوْبُ مُيُوْعَةً ... بِأَغْنَجَ مِنْ مِسْخٍ يُهِيْنُ المَكَارِمَا

١٣ - «أَفْرَغُ مِنْ ذَاتِ عَمُوْد»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ فَـتَكَ بِهِ الفَرَاغ، وضَـاعَ عـن هَدَفِـهِ وزَاغ، والعَمُـوْدُ زَاوِيَـةٌ في جَرِيْـدَة، يَـحْتَوِي تَافِهَ الرَّأْيِ ومُفِيْدَه، وقَدْ تَـكَالَبَتْ عَلَيْهِ النِّسَاء، الـحَصِيْفَةُ مِنْهُنَّ والبَلْهَاء.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً قَضَى عَلَيْهِ التَّخَصُّص، بأنْ يُدِيْمَ عَلَى كِتَابَاتِـهِنَّ التَّلَصُّص، فأَشَـارَ عليـهِ مَنْ إشَارَتُهُ سَخِيْفَة، بأنْ يَشْتَرِكَ في أكْثَرَ مِنْ صَحِيْفَة، فَاضْطُرَّ إلى تَـحْلِيْلِ ثَمَـنِ الاشْـتِرَاك، بَعْـدَ أنْ وَقَعَ في الأَشْرَاك، فرَاحَ يَقْرأُ كُلَّ عَمُوْد، ويُصْغِي لِكُلِّ نَغْمَةِ عُوْد.

وبَيْنَمَـا هُوَ يُقَلِّبُ الصَّفَحَات، ويُرَجِّعُ الآهَاتِ والزَّفَرَات، صَادَفَ أكْثَـرَ مِـنْ زَاوِيَـة، ونَخْلَـةٍ جَرْدَاءَ ذَاوِيَة، ولَـمْ تَزَلْ عَيْنُهُ زَائغَة، يَقْرَأُ لِكُلِّ فَارِغَة، فلَمْ يَظْفَرْ بِسَمِيْن، ولا عِقْدٍ ثَمِيْن، ولَـمْ يَـجِدْ إلاّ الضَّجِيْج، وشِـبْهَ فَـوْضَى الـحَجِيْج، هَـذِهِ تُطَالِـبُ بِالمُسَاوَاةِ المُطْلَقَـة، وتَـمْـضِي في لَـجَاجِهَا مُنْطَلِقَة، وتِلْكَ تَـهْذِي بِشِعْرٍ مَكْسُور، وتَفْتَـرِي عَلَى ابْنِ مَنْظُـور، وأُخْـرَى تَكْتُـبُ خَـاطِرَةً بَـارِدَة، وتَـرَى أنَّـها في القِصَّةِ رَائدَة، ورَابِعَةٌ تُـبَاهِي بِالـحِكَمِ الوَرَى، وبِجَانِبِها تَقْوِيْمُ أُمِّ القُرَى، وخَامِـسَةٌ تَـتَّهِمُ الرِّجَال، بِأَنَّـهُمْ سَبَبُ الوَبَال، وسَادِسَةٌ تَزْعُمُ أنَّـها تَـمْتَلِكُ طَاقَةً نَوَوِيَّة، وتُطَالِبُ بِـها هَيْئَـةُ الطَّاقَةِ الدَّوْلِيَّة، وسَابِعَةٌ تَـجْرِي مُـخْتَالَةً مَـعَ المَوْضَـة، وتُعْلِـنُ انْـضِمَامَ ابْنِهـا إلى الرَّوْضَـة، وثَامِنَـةٌ تَسْتَعْرِضُ بِأَسْفَارِها، وتَرْوِي سَخِيْفَ أَخْبَارِها، وتَاسِعَةٌ تُـخْبِرُ أنَّـها رُوْمَنْسِيَّة، ومَفْتُوْنَةٌ في المُوْسِيْقا الإيْطَالِيَّة، وعَاشِرَةٌ تَشْكُو المُضَايَقَةَ في السُّوْق، وعَارِفُهَـا يُفَـضِّلُ عَلَيْهـا النُّـوْق، وثَمَّـةَ مَـنْ تَـصِفُ عَشَاءَها في بَرْشَلُوْنَة، وهيَ قَابِعَةٌ في البَيْتِ تَأْكُلُ تُوْنَة، وهَكَذا دَوَالَيْكَ تَفَاهَة، وهَلُمَّ سُخْفاً وفَهَاهَة.

فَاسْتَرْجَعَ الرَّجُلُ وَحَوْقَل، وبَكَى عَلَيْهِنَّ وَأَعْوَل، ثُمَّ أَغْلَقَ ما بَيْنَ يَدَيْه، وَأَنْشَدَ والدَّمْعُ مِلْءُ عَيْنَيْه:

إلَهِيَ أَلْقَانِي التَّخَصُّصُ في الضَّنى ... وَأَرْهَقَني حِرْصِي وَطُوْلُ صُمُوْدي

وَغَيْرِي قَرِيْرٌ نَائمٌ فِي فِرَاشِهِ ... ويَحْظَى بِمَا يَرْجُوهُ دُوْنَ جُهُوْدِ

يَظَلُّ معَ الآمَالِ أَكْثَرَ رَاحَةً ... وأَفْرَغَ من حَمْقَاءَ ذَاتِ عَمُوْدِ

أُتِيْحَ لَهَا مَا لَمْ يُتَحْ لِمُحَنَّكٍ ... فَقَاءَتْ سَخَافَاتٍ بِكُلِّ بُرُوْدِ

وَشَجَّعَهَا مَنْ لَيْسَ يَفْقَهُ هَذْرَهَا ... فَكَمْ مِنْ ذِئابٍ صَفَّقَتْ وَقُرُوْدِ

فَلَوْ أَنَّنِي أُنْثَى لَهَانَتْ مَتَاعِبِي ... وَطَبَّلَ لي طَبْلٌ وضارِبُ عُوْدِ

وَلَكنَّني –وَا طُوْلَ خَيْبَتِيَ– امْرُؤٌ ... لَهُ شَارِبٌ كَثٌّ، وَشَعْرُ خُدُوْدِ

١٤ – «أَفْقَرُ مِنْ أَدِيْب»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ أَرْبَى بِهِ الفَقْرُ عَنْ حَدِّه، فبَاعَ بالبَخْسِ ثَوْبَ أَبِيْهِ وجَدِّه، والأَدِيْبُ رَجُلٌ مُنْشَغِلٌ بِما يَنْفَعُ النَّاس، ولا يَحْظَى بِغَيْرِ الـهَوَانِ والإفْلاس.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً انْصَرَفَ إلى الأَدَب، وجَدَّ في تَحْصِيْلِ فُنُوْنِهِ وطَلَب، فلَـمَّا فَاقَ وبَـرَع، وابْتَكَرَ واخْتَرَع، رَأَى أَقْرَانَهُ يَتَبَوَّؤْونَ المَـنَاصِب، وهـوَ وَحْـدَهُ في الـهَمِّ نَاصِب، هُوَ يَجْمَعُ النُّخَب، وهُمْ يَجْمَعُوْنَ الذَّهَب، ويَنْظِمُ القَصَائد، ويُنَظِّمُوْنَ المَوَائد، ويُبْدِعُ الرِّوَايات، ويَبْتَدِعُوْنَ الـهِوَايات، ويَنْقُدُ الأَعْمَال، ويَنْتَقِدُوْنَ المَال.

فلَـمَّا رَأَى ضَيْعَةَ حَالِه، وفَقْرَه وسُوْءَ مَآلِـه، مَـزَّقَ كُتُـبَهُ وأَوْرَاقَـه، وأَقْـسَمَ أنْ يُـوَدِّعَ الفَاقَـة، فاقْتَـرَضَ مِنْ ذَوِيْهِ دُرَيْـهِمَات، ووَضَعَها في المُسَاهَمَات، فمَا إنْ فَـتَحَ طَرْفَهُ وأَغْمَض، إلاّ وقَـدْ أُكِـلَ كالثَّوْرِ الأَبْيَض، وما كَرَّ عَلَيْهِ يَوْمَـان، إلاّ وهـوَ أَفْقَـرُ مِـمَّا كَـان، فـأَدْرَكَ أنَّـهُ مَنْحُـوْس، لا تَنْفَعُـهُ الدُّرُوْس، فعَادَ إلى حِرْفَتِه، وأَنْشَدَ مِنْ حُرْقَتِه:

لَقَـدْ جَرَّبْـتُ هَـذَا العَـيْشَ دَهْـراً ... فَلَـمْ أَرَ قَـطُّ أَفْقَـرَ مِـنْ أَدِيْـبِ

نَـشَأْتُ عَـلَى التَّـأَدُّبِ مِـنْ قَـدِيْمٍ ... وَهَـا قَـدْ لاحَ لِلرَّائِـي مَـشِيْبِي

سِـنُوْنَ مَـضَتْ أَصُـوْغُ بِـهَا الـلآلِي ... وَأَنْثُـرُ مِـنْ فُنُـوْنِي كُـلَّ طِيْـبِ

أُسَـامِرُ لَيْلَتِـي بِـصَدَى القَـوَافِي ... وأَصْـحُو مِثْـلَ مُبْتَـئِسٍ كَئِيْـبِ

أَجُـوْعُ فَـآكُلُ النُّخَـبَ الـسَّوامِي ... وإنْ أَظْمَـأْ فَمِحْبَـرَتِي قَلِيْبِـي

وَيَـبْلَى الثَّـوْبُ ذُو التِّـسْعِيْنَ فَتْقـاً | فَيَـــبْدُو مِـــنْ نَوَافِـــذِه مَعِيْبِـــي
وَلِي كُـــوْخٌ تَفِـــرُّ الـــجِنُّ مِنْـــهُ | وَلا يَـــدْنُو إِلَيْـــهِ أَيُّ ذِيْـــبِ
وَغَـيْرِي هَـانِئٌ فِي خَفْـضِ عَـيْشٍ | يُطِـلُّ عَـلَيَّ مِـنْ قَـصْرٍ مَهِيْـبِ
وَيَرْمُقُنِـــي بِنَظْرَتِـــهِ احْتِقَـــاراً | وَإِنْ سَـلَّمْتُ لَـمْ أَرَهُ مُـجِيْبِي
وَمَـــا فِي رَأْسِـــهِ إِلا هَبَـــاءٌ | وَلَكِـنْ لا اعْـتِرَاضَ عَـلَى النَّـصِيْبِ
فَيَـا دُنْيَـا رَجَوْتُـكِ عَـذِّبِيْنِي | وَيَـا آلامُ وَيْـحَكِ لا تَغِيْبِـي

١٥ – «إنَّ الغِنَى في الكُرَة»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ أَضْنَاهُ الكَدّ، وبَذَلَ في نَيْلِ العُلُوْمِ وجَدّ، حَتَّى إذا اسْتَوَى عُوْدُه، ذَوَى مِنَ الخَيْبَةِ عُوْدُه، وكَانَ حَظَّه الإفْلاسُ والتَّحْطِيْم، وفَازَ مَنْ دُوْنَهُ بِالثَّرَاءِ والتَّقْدِيْم، والكُرَةُ لُعْبَةٌ يَحْتَرِفُها الصِّغَار، ومَنْ ذَهَبَ مِنْ عَقْلِهِ الوَقَار، وطَالَمَا تَابَعَها حَبِيْسُ الفَرَاغ، ورُبَّمَا دَعَمَها خَاوِي الدِّمَاغ، وهيَ في الأَصْلِ نَشَاطٌ مَقْبُوْل، إلاّ إذا زَادَتْ عَنِ المَعْقُوْل، وقَدْ بَالَغَتْ في رِعَايَتِها جِهَات، وأُضِيْعَتْ فِيْها الأَمْوَالُ والأَوْقَات، واخْتَصَمَ بِسَبَبِها الجَاهِلُ والغَافِل، وغَيْرُهُما يَصْنَعُ الصَّوَارِيْخَ والقَنَابِل.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ عُضْوَ هَيْئَةِ تَدْرِيْس، نَالَ شَهَادَةَ الدُّكْتُوْرَاهِ مِنْ بَارِيْس، وكَانَ قَدْ تَخَصَّصَ في عِلْمِ الذَّرَّة، بَعْدَ أَنْ أَفْنَى في الاغْتِرَابِ عُمْرَه، فعَادَ إلى وَطَنِهِ مَنْشُوْرَ الجَنَاح، وظَنَّ أَنْ قَدْ آنَ لَهُ أَنْ يَرْتَاح، ويُكْفَى مَرَارَةَ الأَيَّامِ الخَالِيَة، بِما يَلِيْقُ بِشَهَادَتِهِ العَالِيَة، فارْتَقَبَ التَّكْرِيْمَ أَيَّ ارْتِقَاب، وتَحَفَّزَ لِمَلْءِ يَدَيْهِ والجِرَاب، وحَلُمَ بِمَنْزِلٍ يُلائمُ مَنْزِلَتَه، ورَاتِبٍ جَزْلٍ يُبَرِّدُ غُلَّتَه، فلَمَّا أَلْقَى في جَامِعَتِهِ بِرِحَالِه، جَرَى لَهُ مَا لَمْ يَجْرِ في بَالِه، إذْ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ رَفِيْعُو المَكَانَة، ولَمْ يَسْتَقْبِلْهُ سِوَى عَامِلِ الصِّيَانَة، وظَلَّ شُهُوْراً يُرَاجِعُ عِمَادَتَه، إلى أَنِ اعْتَمَدُوا شَهَادَتَه، وأُجْرِيَ لَهُ رَاتِبٌ يَغْبِنُ القَنُوْع، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوْع، يُجْرَى مِثْلُهُ عَلَى الفَرَّاشِ الجَاهِل، ولا يَخْتَلِفُ عَنْ رَاتِبِ المُرَاسِل، وحِيْنَ أَبَانَ عَنِ الغَبْنِ وَجَلاَ، قِيْلَ لَهُ: البَابُ يَسَعُ جَمَلا، فأَغْمَضَ عَلَى غَبْنِهِ عُيُوْنَه، وظَلَّ يُسَدِّدُ لِلْغُرَمَاءِ دُيُوْنَه، واسْتَأْجَرَ مَنْزِلاً مِنَ الفَرَّاش، وقَسَّطَ مَرْكَبَةً كَثِيْرَةَ الارْتِعَاش، ومَضَى يُخْلِصُ في التَّدْرِيْس، ويُوْلِي بُحُوْثَهُ الجُهْدَ النَّفِيْس.

وحَدَثَ فِي يَوْمٍ كَثِيْرِ العَمَل، أَنْ أَصَابَ المَغْبُوْنَ بَعْضُ المَلَل، فتَوَقَّفَ عَنْ مُوَاصَلِةِ إنْجَازِه، واسْتَرْخَى فِي مُشَاهَدَةِ تِلْفَازِه، فتَابَعَ حَفْلاً مُحْتَشِدَ الأُمَم، لِفَرِيْقٍ فَازَ فِي كُرَةِ القَدَم، وشَاهَدَ جُمْلَةَ الوُجَهَاءِ والمَسْؤُوْلِيْن، وهُمْ يَتَنَافَسُوْنَ فِي احْتِضَانِ اللاَّعِبِيْن، ورَآهُمْ يُقَلِّدُوْنَهُمُ الأَوْسِمَة، ويُكَافِئوْنَهُمْ بِالهِبَاتِ المُتْخِمَة، ثُمَّ بَادَرَ ذَوُو الاسْتِعْرَاضِ والثَّرَوَات، ومَنَحُوْهُمْ أَفْخَمَ القُصُوْرِ والمَرْكَبَات، ثُمَّ وَثَبَ مِنَ المُقَدِّمَةِ وَاثِب، وعَرَضَ المَلايِيْنَ فِي شِرَاءِ لاعِب، فزَادَ عَلَى سَوْمِهِ ذُو عَبَاءةٍ سَمِيْن، وقَدْ ضَاعَفَ لَهُمْ عَدَدَ المَلايِيْن.

وأَثْنَاءَ مَا كَانَ الحَفْلُ عَلَى أَشُدِّه، فَقَدَ صَاحِبُنا المَغْبُوْنُ كُلَّ رُشْدِه، وهَشَّمَ تِلْفَازَهُ بِمِحْبَرَةٍ أَمَامَه، وقَامَ يَجْرِي طَيْشاً كَالنَّعَامَة، ولَمْ يَعُدْ يُسَيْطِرُ عَلَى ذَاتِه، وبَلَّ فِي المَاءِ شَهَادَاتِه، ثُمَّ ارْتَدَى مَلابِسَ رِيَاضَة، وأَكْمَلَ فِي الشَّارِعِ تَرْكَاضَه، وكَانَ وهوَ يَجْرِي يَصِيْح، ويُنْشِدُ بِصَوْتٍ فَصِيْح:

يَا مُنْكِراً رَكْضِيَ وَيْكَ الْتَمِسْ ... عُذْراً، فَعَقْلِي فَاقِدٌ رُشْدَهْ

أَمَا تَرَانِي لابِساً بِزَّةً ... لابِسُهَا يَبْنِي بِهَا مَجْدَهْ؟

وَيَجْتَنِي التَّكْرِيْمَ مِنْ سَادَةٍ ... يُنِيْلُهُ كُلُّهُمُ رِفْدَه

وَلَوْ رَأَوا مِثْلِي امْرَأً عَالِماً ... يَرُوْمُ وَصْلاً صَفَعُوا خَدَّهْ

أَرْهَقَنِي دَيْنِي وَطُلاّبُهُ ... وَرَاتِبِي لا يَمْلأُ المِعْدَةْ

وَمَنْزِلِي البَائسُ مُسْتَأْجَرٌ ... مِنْ جَاهِلٍ كَمْ أَتَّقِي طَرْدَهْ

يَعْمَلُ عِنْدِي فِي الضُّحَى خَادِماً ... ثُمَّتَ أُمْسِي خَادِماً عِنْدَهْ

وَأَمْتَطِي مَرْكَبَةً عَاصَرَتْ ... نُوْحاً، وَحَتْماً أَدْرَكَتْ جَدَّهْ

طَحَالِــبُ الطُّوْفَــانِ في مَتْنِهــا عَالِقَــةٌ لَـــمْ تَـــمْحُهَا المُــدَّةْ
وَإِنْ أَتَـى الـصَّيْفُ تَـدَيَّنْتُ مِـنْ أَقَــارِبِي وَاصْــطَفْتُ في جُــدَّةْ
وَهِمْـــتُ في البِيْـــدِ بِرَعَّاشَـــةٍ كَــأَنَّمَا تَــشْكُو مِــنَ الرِّعْــدَةْ
وَانْظُـرْ بِعَيْنَيْـكَ فَكَـمْ لاعِـبٍ لا يَعْــرِفُ الــضَّمَّةَ وَالــشَّدَّةْ
تُبْـــصِرُهُ يَرْفُـــلُ في نِعْمَـــةٍ وَيَأْكُـــلُ اللَّحْمَـــةَ وَالزُّبْـــدَةْ
وَيَمْلِـكُ الـدُّوْرَ، ولا يَمْتَطِـي إلاّ جَدِيْـــداً بَـــالِغَ الـــجِدَّةْ
يَــا بُعْــدَ أَنْ يَــصْطَافَ إلاّ إِذَا خَــصُّوا لَــهُ طَــائِرَةً وَحْــدَهْ
فَـــتَارَةً يَـــصْطَافُ في لَنْـــدَنٍ وَتَـــارَةً يَقْـــصِدُ أُوْغَنْـــدَةْ
فَارْكُــلْ شَــهَادَاتِكَ إِنَّ الغِنَــى في الكُــرَةِ المَرْكُوْلَــةِ الــجِلْدَةْ
وَالْعَــبْ كَمَعْتُــوْهٍ بِــهِ جِنَّــةٌ وَقَلِّـــدِ الـــهِرَّةَ وَالقِـــرْدَةْ
وَوَدِّعِ الـحِــشْمَةَ تَـــبّاً لَـــهَا وَلامْـــرِئٍ يَأْخُـــذُهَا عُـــدَّةْ
فَحِيْنَـــهَا تُـــصْبِحُ ذَا ثَـــرْوَةٍ وَيَـصْطَفِيْكَ الـشَّيْخُ وَالعُمْـدَةْ

١٦ – «بَوَارٌ وَلا بَوَارُ الفَصِيْح»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ قَعَدَ بِهِ حَظُّه، وارْتَدَّ عَلَيْهِ في الضِّيَاءِ لَـحْظُه، وكَـانَ ذَا حَـسَبٍ واقْتِـدَار، ورَايَةٍ لا يُشَقُّ لَـها غُبَار، والفَصِيْحُ نَعْتٌ لِـمُضْمَرٍ ضَامِر، تَقْدِيْرُهُ: الشِّعْرُ أَوِ الشَّاعِر.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً فَـتَحَ اللهُ عَلَيْه، وجَعَلَ الشِّعْرَ طَوْعَ لِسَانِهِ ويَدَيْه، وكَانَ في زَمَنٍ كَثُـرَ فيـهِ اللُّكَنَاء، وغَلَبَ أَمْرُهُمْ عَلَى الفُصَحَاء، فكَانَ كُلَّـمَا أَنْـشَدَ شَـيْئاً مِـنْ شِـعْره، أُلْقِـمَ حَجَـراً في ثَغْـرِه، وكُلَّـمَا بَعَثَ قَصِيْدَةً إلى المَجَلات، وضَعُوْها في سَلَّةِ المُهْمَلات، وكُلَّـمَا غَنَّـى بِـشِعْرِه عِلْيَـةَ القَـوْم، أَسْلَمُوا عُيُوْنَـهُمْ لِلنَّوْم، وَسِوَاهُ يَـحْظَى بِأَثْمَنِ الـجَوَائز، حِيْنَ يَـرْطُنُ رَطَانَـةَ العَجَـائز، ويُقَـدَّمُ في كُلِّ المُـنَاسَبَات، وهوَ يُـرْمَى عَلَى العَتَـبَات.

وقدْ ضَاعَفَ مِـنْ هَمِّـه، وزادَ في ضُـمُوْرِهِ وسُـقْمِه، أنَّ لـهُ ابْنَـةً اسْـمُها دَلال، وكانَـتْ آيَـةً في الـجَمَـال، وتَـتَنَاقَلُ صِفَاتِـها الأَلْسِنَة، بَيْدَ أنَّـها بَلَغَتْ ثَلاثِيْنَ سَنَة، ولَـمْ يَطْرُقْ بَابَـها خَاطِب، ولا اقْتَـرَبَ مِنْ شَجَرَتِـها حَاطِب، وكانَتْ لَـها جَارةٌ قَبِيْحَةُ الشَّكْل، عُرِفَـتْ بِـبَذَاءةِ القَـوْلِ والفِعْـل، وصِيْتُها سَـيِّءٌ خَامِل، وفي وَجْهِها ثَـآلِيْلُ ودَمَامِل، وليسَ لَـها عَـنِ النَّـاسِ حِجَـاب، وخُطّابُـها حَوْلَـها مِنْ كُلِّ بَاب، فَمُذْ رَأَى الشاعرُ فَلْذَةَ كَبِدِه، تَبْكِي لِكَمَدِها وكَمَدِه، رَبَتَ عَلَى كَتِفِها وذَهَب، وأَحْضَرَ الدَّوَاةَ وكَتَب:

اسْـفَحِي يـا دَلالُ دَمْعَـكِ وابْكِـي ... وتَـشَكَّي جَـوْرَ الزَّمَـانِ القَبِـيْحِ

خَفِّفِـي بِالبُكَـاءِ حُزْنَـكِ هَـذا ... وَأَرِيْـحِيْنِي مِنْ ضَنىً وَاسْتَـرِيْـحي

بَــادِلِيْنِي الــشَّجَا أُبَادِلْــكِ ضِــعْفاً   لَيْسَ يَـجْرِي الـسَّفِيْنُ مِـنْ غَيْــرِ رِيْـحِ

وَهَلُمِّـــي إِلَـــيَّ نَــشْكُ انْتِكَاســاً   وَجُـــمُوْداً مِـنَ النَّـصِيْبِ الـشَّحِيْحِ

فَكِلانَــا لَــهُ مُــصَابٌ، وَيُـــخْفِي   فِي حَــشَاهُ أَنِـــيْنَ قَلْـــبٍ جَــرِيْحِ

يَقْعُـدُ الــحَظُّ بِالــجَدِيْرِ! ويَـسْعَى   بِالأَمَانِي الــحِسَانِ نَحْـوَ الكَـسِيْحِ!

رَدِّدِي مِــــثْلِي: إِنَّنَـــا فِي زَمَـــانٍ   ذَائــــدٍ عَــــنْ نَطِيْحَـــةٍ وَنَطِـــيْحِ

يَـــا كَـــسَاداً وَلا كَـــسَادَ دَلالٍ!   وَبَـــوَاراً وَلا بَـــوَارَ الفَـــصِيْحِ!

١٧ – «تَأَنَّثْ أَنْتَ في زَمَنِ الإنَاث»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ جارَ عَلَيْهِ زَمانُه، وهَوَى بِهِ مِنْ عَلْيَائهِ مَكَانُه، واسْتَلَبَ مَنْ دُوْنَهُ سَيْفَهُ وغِمْدَه، وصَارَ فَضْلَةً وقَدْ كَانَ عُمْدَة، وزَمَنُ الإنَاثِ عَصْرٌ وَاهِي الـهَيْبَة، يُجَرِّرُ رِجالُهُ أَذْيَالَ الـخَيْبَة، فِيْهِ النِّسَاءُ مُسَيْطِرَة، وتَلْبَسُ جِلْدَ القَسْوَرَة.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ حَكِيْماً في زَمَنٍ غَابِر، كَبَا بِهِ في الـهَوَانِ حَظٌّ عَاثِر، فعَاشَ في عَصْرٍ رَدِيْءٍ رَثّ، الأَمْرُ والنَّهْيُ فيهِ للمُؤَنَّث، رِجَالُهُ سُلِبُوا سُلْطَةَ القِوَامَة، وأُلْقُوا عَلَى أَعْقَابِـهِمْ في القُمَامَة، وصَارَتِ النِّسَاءُ فيهِ مُسْتَرْجِلات، وفي مَيَادِيْنِ الوَقَاحَةِ صَائلات، يَلْهَجْنَ بِالمُسَاوَاةِ والتَّحْرِيْر، وعُقُوْلُهُنَّ أَرَقُّ مِنْ قِطْمِيْر، لَـهُنَّ أَلْسِنَةٌ مِثْلُ الأَسْيَاف، وأَقْلامٌ تَنْفُثُ السُّمَّ الزُّعَاف، نَازَعْنَ الرِّجَالَ في الـحُقُوْق، وأَبْدَيْنَ لَـهُمْ أَعْظَمَ العُقُوْق، وَبَطَشْنَ فِيْهِمْ بَطْشَ الـحَجَّاج، ونَادَيْنَ إلى تَعَدُّدِ الأَزْوَاج، وتَطَلَّعْنَ إلى المَنَاصِبِ الـحَسَّاسَة، ولَمْ يَسْلَمْ مِنْهُنَّ كُرْسِيُّ الرِّئاسَة، وأَوْكَلْنَ بُيُوْتَهُنَّ إلى الـخَادِمَات، وهِمْنَ عَلَى وُجُوْهِهِنَّ مُطَالِبَات، تَدْفَعُهُنَّ الغَيْرَةُ والمُشَاكَسَة، وما ثَمَّ وُجُوْهٌ لِلْمُنَافَسَة، وفي التَّظَلُّمَاتِ يَرْدَحْنَ بِالرَّقْص، يَحْمِلُهُنَّ إِلَيْها الإحْسَاسُ بِالنَّقْص، تَتْرُكُ إحْدَاهُنَّ المَطْبَخَ والتَّنُّوْر، ثُمَّ في حَلْقَةِ الفَرَاغِ تَدُوْر، وحِيْنَ تَلْسَعُها الزَّنَابِيْر، تَقُوْلُ: رِفْقاً بِالقَوَارِيْر.

ومِمَّا زَادَ مِنْ هَمِّهِ وأَشْجَاه، أنَّ رِجَالَ عَصْرِهِ أَشْبَاه، فكَانُوا يُسَايِرُوْنَهُنَّ ويُجَارُوْن، ويُمْسِكُوْنَ لَـهُنَّ المَاعُوْن، وهُنَّ يَقْذِفْنَ عَلَيْهِمْ بِالقَلِيْل، ويُهَدِّدْنَهُمْ بِالصُّرَاخِ والعَوِيْل، فنِلْنَ بِذَلِكَ أَرْقَى الوَظَائف، واجْتَنَيْنَ أَحْلَى ما يَجْتَنِيْهِ قَاطِف، وإذا رَضِيْنَ عَلَى رَجُلٍ رَفَعْنَه، وإنْ سَخِطْنَ عَلَى آخَرَ وَضَعْنَه، ولَمْ يَنَلِ الرِّجَالُ عَالِيَ الرُّتَب، إلاّ إذا رَبَطَهُمْ بِالكَرِيْمَاتِ نَسَب، وأَصْبَحَ لِلضَّمِيْرِ

المُؤَنَّثِ المُسْتَتِرِ، أَشَدُّ مِنْ تَأْثِيْرِ السَّاحِرِ الأَشِرِ، ولَمْ يَعُدْ لِلرَّجُلِ قِيْمَة، مِثْلُهُ مِثْلُ البَهِيْمَة، فلَوْ تَأَخَّرَ عَنِ الاحْتِرَاث، لَطُلِّقَ مِنْ فَوْرِهِ بِالثَّلاث، وحَدَثَ أنْ ثَارَ ثُلَّةُ أَبْطَال، ونَادَوا بِبَعْضِ حُقُوْقِ الرِّجَال، وطَمِعُوا بِشَيْءٍ مِنَ المُوَاسَاة، ولَمْ يَتَطَلَّعُوا قَطُّ إلى المُسَاوَاة، فتَرَبَّصَ بِهِمْ بَنَانٌ مَخْضُوْب، وأَبَادَهُمْ بَيْنَ مَشْنُوْقٍ ومَصْلُوْب.

أمّا الحَكِيْمُ فهَجَرَ عَصْرَهُ وما فيه، وانْشَغَلَ عنهُ بِتَصَانِيْفِهِ وقَوَافِيْه، وكَانَ مِنْ ذائعِ مُؤَلَّفَاتِه، ونَافِعِ حِكَمِهِ ولَفَتَاتِه: «مَا فَاتَ الجَمَاعَة، مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَة،» و«اسْتِنْسَارُ البُغَاث، في دَوْلَةِ الإنَاث،» و«بُلْغَةُ الغَرْثَى، فِيْمَنْ رَفَعَتْهُ أُنْثَى،» ولَهُ مِنَ القَوَافي السَّيَّارَة، نُخَبٌ وَافِرَةٌ مُخْتَارَة، ومِنْ أَشْهَرِ مَا وَشَّاه، قَوْلُهُ رَحِمَهُ الله:

أَيَا مُرْخِي شَوَارِبَهُ اخْتِيَالاً ... تَأَنَّثْ أَنْتَ في زَمَنِ الإنَاثِ

أَتَى زَمَنٌ تُعَدِّدُ فِيْهِ أُنْثَى! ... وإنْ تَغْضَبْ تُطَلِّقْ بِالثَّلاثِ!

زَمَانٌ مِثْلُ ذَا زَمَنٌ رَدِيْءٌ ... يَطِيْبُ لِمَنْ يَعِيْشُ بِلاَ اكْتِرَاثِ

تُسَيِّرُنَا بِهِ مُسْتَرْجِلاتٌ ... جَثَثْنَ شُمُوْخَنَا شَرَّ اجْتِثَاثِ

وَمِنْ عَجَبِي يُسَانِدُهُنَّ قَوْمٌ ... يُسَارُ بِهِمْ كَثِيْرَانِ احْتِرَاثِ!

زَمَانِي شُهْتَ مِنْ زَمَنٍ قَبِيْحٍ ... يَذِلُّ النِّسْرُ فِيْهِ لِلْبُغَاثِ

فَلَوْ عَصْرِي كَعَصْرِ أَبِي وَجَدِّي ... لَمَا وَلْوَلْتُ في هَذِي المَرَاثي

فَيَا لَلَّهِ مَا أَشْقَى زَمَانِي ... وَأَكْثَرَ مَا أَحِنُّ إلى تُرَاثي

١٨ – «جَنَى عَلَيْهِ الـجِوَار»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الأَذَى غَيْرِ المُـتَوَقَّع، وفي الضَّرَرِ مِمَّنْ يَـخَالُهُ النَّـاسُ يَنْفَـع، والـجِوَارُ قُـرْبُ الدَّارِ مِنَ الدَّار، وجَاوَرَ الرَّجُلُ قَوْماً فهوَ جَار، ولِلْجِوَارِ آدَابٌ وسُنَن، يَقُوْمُ بِحَقِّها مَنْ فَطَن، وثَمَّـةَ مَنْ يُغْفِلُ تِلْكَ الـحُقُوْق، ويُرِي جِيْرَانَهُ كُـلَّ العُقُـوْق، فيُطْلِقُ صِـبْيَتَهُ كَالنِّعَـاج، أَوْ يُـسْمِعُهُمْ مِنْـهُ الإزْعَاج.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ رَجُلاً نَـهَاهُ الثِّقَات، أَنْ يُـجَاوِرَ مَنْ يُـخَالِفُوْنَهُ في العَادَات، ولَكِنَّهُ لِقِلَّـةِ مـا في جِرَابِه، أَعْرَضَ عَنْ نُصْحِ أَحْبَابِه، فسَكَنَ حَيّاً غَيْرَ مُنَظَّم، يَـجْرِي في شَـوَارِعِهِ الـدَّم، فأَغْلَــقَ بَـابَ بَيْتِهِ عَلَيْه، وكَفَّ أَذَاهُ عَمَّنْ حَوَالَيْـه، وبَيْنَمَــا هُـوَ يَـسْأَلُ اللهَ اللُّطْـف، إذْ طُـرِقَ بَـابُ بَيْتِـهِ بِعُنْـف، فاسْتَطْلَعَ الأَمْرَ في حِيْنِه، فإذا صَبِيٌّ يُشِيْرُ بِسِكِّيْنِه، وفي وَجْهِهِ جُـرُوْحٌ وحُـرُوْق، وثَوْبُـهُ عَـلَى المَـتْنِ مَشْقُوْق، ثُمَّ أَمَرَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْذِرَة، أَنْ يُـحْضِرَ مِنْ فِنَائِهِ الكُرَة، فلَمْ يَـجِدْ بُدّاً مِنْ إخْبَارِ أَبِيْه، عَـمَّا رَآهُ مِنِ ابْنِهِ السَّفِيْه، فرَمَقَهُ الأَبُ وهوَ جَاحِظُ العُيُوْن، وصَاحَ في وَجْهِهِ: صِبْيَةٌ يَلْعَبُوْن، وفي اليَوْمِ الثَّاني خَرَجَ الـجَار، فوَجَدَ مَرْكَبَتَـهُ عَـلَى الأَحْجَـار، إطَارَاتُــها الأَرْبَعَـةُ مَـسْلُوْبَة، وزُجَاجَتُهَـا الـخَلْفِيَّةُ مَثْقُوْبَة، وفي اليَوْمِ الثَّالِثِ أَقْبَلَ وَلَدُه، والدِّمَاءُ يَسِيْلُ بِـها جَسَدُه، وذَكَرَ أَنَّـهُ تَعَـرَّضَ لاعْتِـدَاء، مِـنْ ثَلاثَةِ صِبْيَةٍ أَشْقِيَاء، ومَرَّتِ الأَيَّامُ تِلْوَ الأَيَّام، والـجَارُ يُعَانِي أَذَى اللِّئَـام، والآبَـاءُ يُـرَدِّدُوْن:، صِـبْيَةٌ يَلْعَبُوْن.

وحِيْنَئِذٍ قَرَّرَ الـجَارُ أَنْ يُنَازِل، ويَضَعَ حَدّاً لِـهَذِهِ المَهَازِل، فلَمْ يُعَالِجِ الغَلْطَـةَ بِغَلْطَـة، وذَهَـبَ شَاكِياً إلى الشُّرْطَة، فبَاحَ لَـهُمْ بِـمَا أَرَّقَ بَالَه، وأَخْبَـرَ بِكُلِّ مَا جَرَى لَه، فلَمْ يَزِيْـدُوا أَنْ نَظَـرُوا إِلَيْـه، وقَالُوا والدَّمْعُ مِلْءُ عَيْنَيْه:

احْـمَدِ اللهَ عَلَى النَّجَاة، فغَيْرُكَ عَانَى أَشَدَّ المُعَانَاة، ولَيْسَ في وُسْعِنَا يا مَغْبُـوْن، أَنْ نَـرْدَعَ صِـبْيَةً يَلْعَبُوْن، فإِنْ شِئْتَ أَلاّ تَقُوْلَ: (لَيْت)، فَاغْنَمِ السَّلامَةَ وبِـعِ البَيْت.

فعَلِمَ المَغْبُوْنُ أَنَّـها الغَنِيْمَة، وبَاعَ بَيْتَهُ بِرُبْعِ القِيْمَة، ثُمَّ حَمَلَ صِغَارَهُ ومَتَاعَه، وأَنْشَدَ وهوَ يَـصْلَى الْتِيَاعَه:

سَـكَنْتُ حَيّـاً رَخِيْـصاً	لَـمَّا تَغَـالَى العَقَـارُ
فَكَـانَ أَسْـوَأَ حَـيٍّ	سُـكْنَاهُ بُـؤْسٌ وعَـارُ
لِلَّـهِ كَـمْ بِـتُّ فِيْـهِ	وخَـافِقِي مُـسْتَطَارُ
جَـاوَرْتُ فِيْـهِ أُنَاسـاً	الـشَّرُّ فِـيْهِمُ فَخَـارُ
صِبْيَانُـهُمْ في النَّـوَاحِي	مُفَلَّتُـوْنَ نِثَـارُ
في وَجْـهِ كُـلِّ صَـبِيٍّ	حَـدَائِقٌ وَقِفَـارُ
وفي الـجُيُوْبِ سِـلاحٌ	ومُدْيَـةٌ وَعُقَـارُ
وَإِنْ تُـخَبِّرْ ذَوِيْـهِمْ	عَـنْهُمْ يَنَلْـكَ شَرَارُ
فَكَـمْ أُعَـانِي أَذَاهُـمْ	وَكَـمْ يُعَـانِي الـصِّغَارُ
وَنَـالَ مَرْكَبَتِـي مِـنْ	أَذَى الوُحُـوْشِ الـدَّمَارُ

فَلِلْوَقُــــوْدِ امْتِـــــصَاصٌ وَلِلزُّجَـــاجِ انْكِــــسَارُ

وطَالَــــــمَا رَفَعُوْهَـــــا وَسُـــلَّ مِنْهَـــا إطَـــارُ

قِـــدْماً نَـــهَانِي ثِقَـــاتٌ فَكَـــانَ مِنِّـــي اغْـــتِرَارُ

وهَـــا أَنَــا بِعْـــتُ بَيْتِـــي وصَـارَ حَظِّـي الـخَـسَارُ

فَـــدُوْنَكَمْ مَـــا دَهَـــانِي وَلْيَبْـــدُ مِـــنْكُمْ حِـــذَارُ

وَارْثُـــوا لِـــحَالَةِ جَـــارٍ جَنَـــى عَلَيْـــهِ الـــجِوَارُ

١٩ – «حِجَاجٌ وَلا حِجاجُ بَخِيْل»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ يُغَالِطُ بِالـجَدَل، وأُوْتِـيَ بَـرَاعَةَ الـخَلْطِ والـدَّجَل، فظَـنَّ أَنَّ حُجَجَـهُ مَسْقُوْفَةُ البُيُوْت، وهيَ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِ العَنْكَبُوْت، والبَخِيْلُ مَـخْذُوْلٌ أُعْطِيَ الفَضْل، فبَخِـلَ وأَمَـرَ النَّاسَ بِالبُخْل، حَرَمَهُ اللهُ مُتَعَ الـحَيَاة، ووَارِثُهُ يَتَمَنَّى لَهُ الوَفَاة، يُـحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ عَالَـةً عَـلَى غَـيْرِه، ولا سَبِيْلَ إلى النَّيْلِ مِنْ خَيْرِه، وقَدْ يَتَـمَادَى بِهِ الـخِذْلان، فيَـرَى أَنَّهُ أَكْرَمُ إِنْـسَان، ولَـهُ في التَّـسْوِيْغِ والادِّعَاء، حُجَجٌ لَيْسَ لَـها انْتِهَاء.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ رَجُلاً مَسْتُوْرَ الـحَال، ابْتُلِـيَ بِصَاحِبٍ أَثْقَلَ عَلَيْهِ أَيَّ إِثْقَال، وهـوَ مَـعَ إِثْقَالِـهِ وإِمْلالِه، يَدَّعِي القِلَّةَ فِي مَالِه، وصَاحِبُهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَذَّاب، وأَنَّ أَمْوَالَهُ يَنُـوْءُ بِـها الـحِسَاب، ولَكِنَّـهُ رَاعَى مُوْجِبَاتِ الصَّدَاقَة، ورَأَى أَنْ يَكْفِيَهُ وَهْمَ الفَاقَة، ودَامَ مَعَهُ عَلَى هذا الـحَالِ المَهِـيْن، وشَـاهَدَ مِنْهُ مَا يُزْرِي ويَشِيْن، فمَتَى اصْطَحَبَا في الأَسْفَار، كَفَاهُ الكُلْفَـةَ غَـيْرَ مُـخْتَار، وادَّعَـى أَنَّ رَغْبَتَـهُ في السَّفَرِ قَلِيْلَة، وأَنَّهُ لَـمْ يُسافِرْ إلاّ لِيُجَامِلَ خَلِيْلَه، وإذا ذَهَبَا إلى مَطْعَم، تَـحَمَّلَ عَنْـهُ المَغْـرَم، ورُبَّمَـا أَخَذَتِ اللَّئِيْمَ نَـشْوَةُ الكِـرَام، فوَثَـبَ عِنْـدَ الـحِسَابِ إلى الـحَمَّام، ثُـمَّ أَقْبَـلَ يَلُـوْمُ صَـاحِبَهُ عَـلَى الاسْتِعْجَال، ويَقُوْلُ: لَوْ تَـرَكْتَنِي أَدْفَعُ عَنْكَ المَال، ولَكِنْ في المَـرَّةِ القَادِمَةِ بِإِذْنِ مَوْلاي، لَنْ يَتَحَمَّـلَ ثَمَنَ الطَّعَامِ سِوَاي، وعِنْدَما يَـحِيْنُ اليَوْمُ المَوْعُوْد، يَـدَّعِي اللَّئِـيْمُ نِـسْيَانَ النُّقُـوْد، وهَكَـذا كَـانَ في تَوَاكُلِهِ ومَعَاذِيْرِه، وصَاحِبُهُ يَكْتُمُ عَنْهُ لَظَى سَعِيْرِه.

وحِيْنَ طَفَحَ بِصَاحِبِنا الكَيْل، وغَمَرَهُ مِنْ لُؤْمِ صَاحِبِهِ سَيْل، قَرَّرَ أَنْ يُـصَارِحَهُ بِعَيْبِـه، وبِعِلْمِـهِ عَنِ المَخْبُوْءِ في جَيْبِه، وأَنْ يُبَـيِّنَ لَـهُ أَنَّ الـصُّحْبَة، مُـشَارَكَةٌ في اليُـسْرِ والكُرْبَـة، وأَنَّ التَّوَاكُـلَ مَـعَ

الاقْتِدَار، مِنْ شِيَمِ ذَوِي الصَّغَار، ولَـمَّا طَرَحَ عَلَيْهِ هَذِهِ المَآخِذ، انْتَفَشَ اللَّئِيْمُ انْتِفَاشَ القَنَافِذ، ثُـمَّ كَشَّرَ عَنْ أَنْيَابِ غُوْل، وانْثَنَى فِي مَعْرِضِ الـجَدَلِ يَقُوْل:

وَيْـحَكَ كَأَنَّكَ تَرْمِيْنِي بِالبُخْل، وتَـجْحَدُ مِنِّي مَا لَقِيْتَهُ مِنْ بَذْل!، أَتُنْكِرُ أَيُّـها اللَّئِيْمُ الـجَاحِد، أَنَّنِي كُنْتُ لَكَ خَيْرَ مُسَاعِد؟!، أَنَسِيْتَ يَوْمَ سُرِقَ جَوَّالُك، وسَاءتْ بِسَرِقَتِهِ أَحْوَالُك، أَنَّنِي أَتَـحْتُ لَكَ جَوَّالِي مَرَّتَيْن، فهَاتَفْتَ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ دَقِيْقَـتَيْن؟!، أَمْ نَسِيْتَ يَوْمَ شَرِبْنَا الشَّايَ قَبْلَ سَنَوَات، ولَـمْ تَعْمَلْ بِطَاقَةُ ائتِـمَانِكَ رَغْمَ المُحَاوَلات، فقُلْ لِي مَنْ دَفَعَ الدِّرْهَمَيْن، يا صَاحِبَ الزَّيْـفِ والمَـيْن؟!، أَمْ نَسِيْتَ يَوْمَ كُنْتَ تَـمْشِي وَرَائي، فَقَطَعْتَ دُوْنَ أَنْ تَدْرِيَ حِذَائي، فاكْتَفَيْتُ مِنْكَ بِالتَّعْوِيْضِ الزَّهِيْد، ولَـمْ أُطَالِبْكَ بِثَمَنِ حِذَاءٍ جَدِيْد؟!، أَظُنُّكَ تَذْكُرُ كُلَّ هَذا وأَكْثَر، فلِمَ تَرْمِيْنِي بِمَا فِيْكَ مِـنْ مُنْكَـر؟!، وإِنْ كُنْتَ تَنْقِمُ عَلَيَّ الاقْتِصَاد، فقَدْ حَثَّ إِلَيْهِ خَيْرُ العِبَاد، ومَعَ ذَلِكَ فإِنَّنِي أَخْـشَى العِقَـاب، لِكَثْـرَةِ تَبْذِيْرِي يَوْمَ الـحِسَاب، فأَنَا أُنْفِقُ إِنْفَاقَ مَنْ لا يَـخْشَى الفَقْر، وأُبَادِرُ إِلى سَدَادِ فَوَاتِيْرِي كُـلَّ شَـهْر، واسْأَلْ عَنْ جُوْدِي البَعُوْض، وكَيْفَ أَدَعُهُ فِي دَمِي يَـخُوْض، وإِنِ اسْتَـكْثَـرْتُ فِي المُبِيْـدِ الأَثْـمَان، فلأَنَّ عِلاجَ المُسْتَشْفَى بِالمَجَّان، وهَـلْ تَعْلَـمُ أَنَّنِـي إِنْ فَاتَـتْنِي وَلِيْمَـة، بَـذَلْتُ فِي شِرَاءِ الـخُبْزِ أَيَّـةَ قِيْمَة؟!، وأَنَّنِي أُغَيِّـرُ ثَوْبِي قَبْلَ أَنْ يَتَمَزَّق، ولا أَرْتُقُهُ وهـوَ قَابِـلٌ أَنْ يُرْتَـق؟!، فقُـلْ لِي وَيْـحَكَ أَيَّ بُخْلٍ عَنَيْت؟!، وأَيَّةَ فِرْيَةٍ عَلَيَّ قَدِ افْتَـرَيْت؟!، فـوَاللهِ إِنِّي بَـدَأْتُ أُوْجِسُ مِنْـكَ خِيْفَـة، لِـهَوْلِ مَـا ادَّعَيْتَ فِي فِرْيَتِكَ السَّخِيْفَة، والأَرْجَحُ عِنْدِي أَنَّـكَ طَـامِع، وتَرْجُـو مِـنْ مَـالِي المَـنَافِع، وتُرِيْـدُ أَنْ تَسْتَغِلَّ كَرَمِي، وتَـمْتَصَّ أَنْتَ والبَعُوْضُ دَمِي، فاذْهَبْ هَذا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِك، لا تَـرَكَ اللهُ سَـوَاداً فِي عَيْنِك، ولَنْ أُبِيْحَكَ مِنْ أُجْرَةِ هَذْرِكَ فِي جَوَّالِي، ولا مِنْ قِيْمَةِ الشَّايِ وحِذَائي البَـالِي، فـإِنْ كُنْـتَ

نَبِيْلاً وذا إبَاء، فرُدَّ عَلَيَّ أَثْـمَانَ هَـذِهِ الأَشْـيَاء، وإلاّ فأَسْـأَلُ اللهَ أَنْ يُــجَازِيَكَ عَـلَى اسْـتِغْلالِك، وأَنْ يُـرِيَكَ –كَمَا عَقَقْتَنِي– عُقُوْقَ عِيَالِك.

وبَيْنَمَـا البَخِيْلُ في لَـجَاجِهِ مُنْهَمِك، إذِ انْتَابَتْ صَاحِبَنا نَوْبَةُ ضَحِك، وأَدْرَكَ أَنَّ البُخْلَ ابْتِلاء، وأَنَّ أَهْلَهُ أَبْلَغُ البُلَغَاء، حَرَمَهُمُ اللهُ السَّمَاحَة، ووَهَبَهُمْ بَلِيْغَ الفَصَاحَة، عَـلَى أَنَّ فَـصَاحَتَهُمْ لَــجَاج، وحِجَاجَهُمْ بَقْبَـقَةُ دَجَاج، فوَدَّعَهُ ولَـمْ يَنْوِ قَطِيْعَتَه، ثُمَّ رَفَعَ بِالإِنْشَادِ عَقِيْرَتَه:

وَخَلِيْــــلٍ بُلِيْـــتُ مِنْـــهُ بِـــشُحٍّ ... وَاتِّكَــالٍ، فَيَــا لَبَلْــوَى الــخَلِيْلِ

يَـدَّعِي الفَقْـرَ وَهْـوَ مُثْـرٍ، وَيُلْقِـي ... فَـوْقَ ظَهْـرِي بِكُـلِّ حِـمْلٍ ثَقِيْـلِ

ذَاتَ يَـوْمٍ لَـمَحْتُ كَـشْفَ حِـسَابٍ ... بِاسْــمِهِ يَنْــتَهِي بِــرَقْمٍ طَوِيْــلِ

فَـــتَغَاضَيْتُ عَــنْ خَــسَاسَةِ خِــلِّي ... وَتَـساخَيْتُ رَغْـمَ دَخْلــي القَلِيْـلِ

كَــمْ لَيَــالٍ أَنْفَقْــتُ فِيْهــا عَلَيْــهِ ... وَصَنَعْتُ الــجَمِيْلَ تِلْـوَ الــجَمِيْلِ

لَــوْ أَبُــوْهُ قَــارُوْنُ لَــمْ يَــحْتَمِلْهُ ... فَــلِيَ اللهُ مِــنْ صَـــدِيْقٍ نَبِيْـــلِ

حِيْنَمَــا لُــمْتُهُ عَـلَى البُخْـلِ يَوْمـاً ... ثَـارَ فِي وَجْهِـي بِالــخَنَا وَالعَوِيْـلِ

وَمَــضَى يَــسْتَعِيْدُ مَــا نِلْــتُ مِنْــهُ ... مِــنْ نُفَاثَــاتِ جُــوْدِهِ وَالــضَّئِيْلِ

وَنَـــفَى كُـــلَّ بُخْلِـــهِ، وَرَمَـــانِي ... بِالــذِي فِيْــهِ.. يَـا لَـهُ مِـنْ عَلِيْـلِ!

بَـــارِعٌ فِي لَــــجَاجِهِ وَالـــدَّعَاوَى ... مَــا لَـــهُ فِي بَيَانِـــهِ مِـــنْ مَثِيْـــلِ

أَيْــنَ سَــحْبَانُ عِنْـدَهُ؟ أَيْــنَ قُــسٌّ؟ ... أَيْـــنَ عَنْــهُ أَفْــذَاذُ ذَاكَ الرَّعِيْــلِ؟

لَــوْ رَأَوْا مِثْلَــهُ حِجَاجــاً لَقَــالُوا: ... يَــا حِجَاجــاً وَلا حِجَــاجَ بَخِيْــلِ

٢٠ – «دَعَاوَى صَحَفِيّ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الإشَاعَات، والكَلامِ المَبْنِيِّ عَلَى المُبَالَغَات، والصَّحَفِيُّ عَامِلٌ في جَرِيْدَة، يَطْلُبُ مِنْهُ رُؤَسَاؤهُ جَدِيْدَه، وقَدْ تَضِيْقُ بِبَعْضِ الصَّحَفِيِّيْنَ الأَخْبَار، فيُضَخِّمُوْنَ النَّمْلَةَ ويُجِلُّوْنَ الحِمَار، وطَالَمَا عَبَثُوا بِالقَارِئِ المِسْكِيْن، وخَادَعُوْهُ بِمُفَرْقَعَاتِ العَنَاوِيْن، ورُبَّمَا حَمَلَتْهُمْ رَغْبَةُ المَطْعَم، إلى تَغْطِيَةِ عُرْسٍ ومَأْتَم، فالْتَقَطُوا صُوَراً لِلزَّوْجِ ولِلثَّاكِل، ثُمَّ الْتَهَمُوا ما طَابَ مِنْ مَآكِل.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ رَجُلاً وَافِرَ الحَصَافَة، جَاوَرَ أَحَدَ العَامِلِيْنَ في الصَّحَافَة، فكَانَا إذا اجْتَمَعَا في دَار، هَذَرَ الصَّحَفِيُّ عَلَى الجَار، وأَخَذَ يُسْمِعُهُ الفَضَائح، ويَنْتَقِدُ الغَادِيَ والرَّائح، ويُهَوِّلُ صَغِيْرَاتِ الأُمُوْر، ويَخْلِطُ اللُّبَابَ بِالقُشُوْر، وإذا خَرَجَتْ جَرِيْدَةُ الصَّبَاح، قَرَأَ لَهُ فِيْها العَوِيْلَ والصِّيَاح.

وكَانَ في حَيِّهِمَا بُسْتَان، حَافِلٌ بِكُلِّ مَا رَاقَ وزَان، يَقْصِدُهُ الأَطْفَالُ والنِّسَاء، ويَبْقَوْنَ فِيْهِ حَتَّى المَسَاء، وحَدَثَ أَنْ سَقَطَ صَبِيٌّ مِنَ الأُرْجُوْحَة، فنَزَفَ بَعْضُ الدَّمِ مِنْ يَدِهِ المَجْرُوْحَة، ومَا إنْ عَلِمَ الصَّحَفِيُّ بِالخَبَر، حَتَّى شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِهِ وحَضَر، وصَوَّرَ الصَّبِيَّ مِئَةَ صُوْرَة، وكَتَبَ أَنَّ يَدَهُ مَكْسُوْرَة، وأَنَّهُ أُصِيْبَ بِجُرُوْحٍ ثَخِيْنَة، سَبَبُها إهْمَالُ بَلَدِيَّةِ المَدِيْنَة، وحِيْنَمَا قَرَأَ المَسْؤُوْلُوْنَ تَحْقِيْقَه، دَمَجُوا البَلَدِيَّةَ وأَغْلَقُوا الحَدِيْقَة، فحُرِمَتِ الأُسَرُ مِنَ التَّرْفِيْه، لِدَجَلِ هَذا الصَّحَفِيِّ السَّفِيْه.

فرَأَى الجَارُ أَنْ يَنْفَرِدَ بِجَارِه، ويَكْشِفَ لَهُ بَعْضَ عَوَارِه، فصَحِبَهُ في نُزْهَةٍ قَرِيْبَة، ثُمَّ عَابَ عَلَيْهِ أَكَاذِيْبَه، ونَصَحَهُ بِتَحَرِّي الحَقَائق، والتَّحَلِّي بِالطَّبْعِ الصَّادِق، وأَلاّ يَنْظُرَ إلى جِهَةٍ وَاحِدَة، وأَلاّ يُوَجِّهَ لِلشُّهْرَةِ مَقَاصِدَه، وبَيْنَمَا الجَارُ يَنْصَحُ صَفِيَّه، إذْ مَرَّتْ سَحَابَةٌ صَيْفِيَّة، وَرَشَحَ مِنْها بَعْضُ الطَّلّ، فما لَبِثَ الصَّحَفِيُّ أَنِ انْسَلّ، ووَدَّعَ جَارَه في اسْتِعْجَال، والْتَفَتَ إِلَيْهِ لاهِثاً وقَال:

أَعِدُكَ أَنْ أُرَاعِيَ أَقْوَالَـك، فـأَرِحْ مِـنَ اليَـوْمِ بَالَـك، ولَكِـنَّ المَدِيْنَـةَ الآنَ تَغْـرَق، وشَـوَارِعُها بِالطُّوْفَان تَشْرَق، ولا بُدَّ أَنْ أُصَوِّرَ هَذِهِ المَهَازِل، وأَكْتُـبَ عَنْهـا تَقْرِيْـرِي العَاجِـل، فـدَعْنِي أَرْصُـدِ الفَيَضَانَات، قَبْلَ أَنْ تَبْتَلِعَها البَيَّارَات، وأَرْجُو أَنْ تُـهَاتِفَنِي دُوْنَ تَعْوِيْـق، مَتَـى صَـادَفْتَ حَادِثـاً في الطَّرِيْق.

فتَيَـقَّنَ الرَّجُلُ أَنَّ صَاحِبَهُ مُبْتَلَى، وأَنَّ لَيْلَ غَيِّهِ بَعْدُ ما انْجَلَى، فرَجَّعَ عَلَيْـهِ آهَـةً مُـحْرِقَة، ثُـمَّ أَنْشَدَ والشَّمْسُ مُشْرِقَة:

يَـا لَــجَارٍ صَــحَفِيٍّ يَقْتَفِــي	أَثَــرَ الــشَّرِّ كَــصِلٍّ لادِغِ
يَرْصُــدُ القُــبْحَ بِطَـرْفٍ ثَاقِــبٍ	وَيَــرَى الـحُـسْنَ بِطَـرْفٍ زَائـغِ
يَــحْبِكُ الزَّيْـفَ فُنُوْنـاً فَهْـوَ في	فَرْقَعَـاتِ القَـوْلِ أَدْهَـى نَابِــغِ
كَـمْ دَعَـاوَى بَـاطِلاتٍ هَـذَّهَا	وَكَــسَاهَا بِالــدَّلِيْلِ الــدَّامِغِ
وَيَــسِيْرٍ هَــيِّنٍ قَــدْ صَــاغَهُ	نَــبَأً.. تَــبّاً لَــهُ مِــنْ صَـائغِ
وَيْلَــهُ! أَصْــفَيْتُهُ نُـصْحِي فَلَـمْ	أَلْــقَ مِنْــهُ غَــيْرَ عِــيٍّ بَــالِغِ
مَـنْ رَأَى رَشْـحَ الـحَيَا مَـا بَالُـهُ	زَاغَ عَـنْ قُـرْصِ الـسَّمَاءِ البَـازِغِ؟!
فَــدَعُوْهُ في هَــوَى تَــضْلِيْلِهِ	إِنَّ مِنْطِيْــقَ الــهَوَى كَــاللاَّثِغِ
وَاعْلَمُــوا أَنْ لا دَعَــاوَى هَــشَّةً	كَــدَعَاوَى صَــحَفِيٍّ فَــارِغِ

٢١ – «زَيْفٌ كَزَيْفِ المُسَابَقَات»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الدَّجَلِ والـهُرَاء، والعَبَثِ بِمَشَاعِرِ الفُقَرَاءِ والبُسَطَاء، والمُسَابَقَاتُ أَفْخَاخُ احْتِيَال، تُنْصَبُ لِنَهْبِ الأَمْوَال، ولِلْقَائمِيْنَ عَلَيْها وَسَائل، لِـجَذْبِ الغَافِلِ والـجَاهِل، أَشْهَرُها القَائمُ عَلَى التَّصْويْت، وإثَارَةِ نَعْرَةِ التَّعَصُّبِ المَقِيْت، ووَسِائلُهُمْ تَـهْدِفُ إلى المُتَاجَرَة، ومُعْظَمُها يَقُوْمُ عَلَى المُقَامَرَة، وتَخْلُو مِنَ التَّنَافُسِ الشَّرِيْف، ولِلْمُتَفَيْهِقِيْنَ مِنْها مَوْقِفٌ ظَرِيْف، حَيْثُ رَأَوا أَوَّلَ الأَمْرِ حُرْمَتَها، ثُمَّ أَبَاحُوْها لَـمَّا ذَاقُوا عُسَيْلَتَها، وصَارَ لِطَائفَةٍ مِنْهُمُ الـخُطُوْطُ الـخَاصَّة، وأَرْصِدَتُـهُمْ بِقِيْمَةِ الاتِّصَالاتِ غَاصَّة.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ شَاعِراً سَمِعَ في الإعْلان، عَنْ مُسَابَقَةِ أَشْعَرِ الإنْسِ والـجَان، وأَنَّ جَائزَتَـها آلافُ الدَّنَانِيْر، والـحُكْمَ فِيْها لِنُخْبَةِ الـجَمَاهِيْر، فغَرَّتْهُ لَفْظَةُ (نُخْبَة)، ودَعَتْهُ إلَيْها الرَّغْبَة، وكَانَ رَغْمَ الإفْلاس، مِنْ أَشْعَرِ النَّاس، فاخْتَارَ مِنْ شِعْرِهِ وانْتَخَب، وبَعَثَ بِهِ إلَيْهِمْ وارْتَقَب، ورَاحَ يَسْرَحُ بِالأَحْلامِ والآمَال، وكَيْفَ سَيَحْتَارُ في إنْفَاقِ المَال، وتَخَيَّلَ أَنَّهُ سَدَّدَ أَقْسَاطَهُ المُرَكَّبَة، وأَنَّهُ اشْتَرَى بَيْتاً ومَرْكَبَة، ولَـمَّا صَوَّتَ المُصَوِّتُوْن، خَرَجَ بِصَفْقَةِ المَغْبُوْن، إذْ لَـمْ يُصَوِّتْ لَـهُ غَيْرُ أَخٍ وجَار، وثَالِثٍ أَخْطَأَ في (زِرِّ) الاخْتِيَار، ومِـمَّا زَادَ غَبْنَ الشَّاعِرِ وسَاءه، أَنَّ قَصِيْدَةَ الفَائزِ بَالِغَةُ الرَّدَاءة، بَيْدَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ قَبِيْلَةٍ كَبِيْرَة، ولَـها انْتِشَارٌ في أَنْحَاءِ الـجَزِيْرَة، فصَوَّتُوا لَـهُ نَخْوَةً وحَمِيَّة، وهُمْ لا يَعْرِفُوْنَ ما القَضِيَّة.

وحِيْنَمَا تَبَدَّدَتْ أَحْلامُه، وسَيْطَرَتْ عَلَيْهِ آلامُه، نَفَّسَ عَنْ كَرْبِهِ الثَّقِيْل، بِأَثْقَلِ أَوْزَانِ الخَلِيْل، فبَاغَتَ مُنَظِّمِي ذَلِكَ الهُرَاء، وهَاتَفَهُمْ مُبَاشَرَةً عَلَى الهَوَاء، وأَنْشَدَهُمْ بِسُرْعَةِ خَاطِف، قَبْلَ أَنْ يُغْلِقُوا الهَاتِف:

لأَنِّي بِغَيْرِ قَوْمٍ   وَلا عُصْبَةٍ ذَوَاتِ

أُعَانِي فَوَاتَ فَوْزِي   وَأَبْكِي عَلَى فَوَاتِي؟!

فَمَا ثَمَّ قَطُّ زَيْفٌ   كَزَيْفِ المُسَابَقَاتِ

أَلاَ إِنَّكُمْ لُصُوْصٌ   تَبُثُّوْنَ مِنْ قَنَاةِ

تُقِيْمُوْنَ سَبْقَ شِعْرٍ   وَتُغْرُوْنَ بِالهِبَاتِ

وَأَنْتُمْ بِلا شُعُوْرٍ   فَيَا لَلْمُفَارَقَاتِ!

لَقَدْ كَانَ سَبْقَ رَدْحٍ   خَصَصْتُمْ بِهِ فِئَاتِ

بِتَصْوِيْتِهِمْ أَكَلْتُمْ   وَقُمْتُمْ عَنِ الفُتَاتِ!

فَخَادَعْتُمُ القَوَافِي   وَجُمْهُوْرَهَا المُوَاتِي

وَمِنْ قَبْلِ ذَاكَ سَبْقٌ   لأَعْجَازِ رَاقِصَاتِ!

ذِئَابٌ تَرُوْمُ طُعْماً   فَكَمْ أَرْنَبٍ وَشَاةِ!

٢٢ – «سَخَافَةٌ لَـمْ يَقُلْهَا التَّرْبَوِيّ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الكَلامِ البَارِد، قَليلِ المَنافِعِ مَنْـزُوْعِ الفَوَائـد، والتَّرْبَـوِيُّ مَـنْ أَشْـغَلَ نَفْـسَهُ بِالقُشُوْر، وغَفَلَ عَنْ جَلائلِ الأُمُور، وانْصَرَفَ عَنْ شُـؤُوْنِ التَّعْلِـيْم، وبَـالَغَ في التَّنْظِـيْرِ والتَّنْظِـيْم، فخَرَجَ عَلَى يَدِهِ جِيْلٌ ضَعِيْف، لا يَقْوَى عَلَى كَسْرِ رَغِيْف، جَاوَزَ وَاحِدُهُمْ عِشْرِيْنَ عَاما، ولَـمْ يَـزَلْ يُنَادِي أُمَّهُ: مَامَا.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً تَزَوَّجَ دَارِسَةَ نَفْس، وأَنْجَبَ مِنْها بَنَاتِهِ الـخَمْس، فكـانَ إذا عَنَّـفَهُنَّ عـلَى الـخَطَأ، فَضَحَتْهُ زَوْجَتُهُ في المَلأ، وإذا مَعَهُنَّ انْبَسَط، قالَتْ لَهُ: غَلَط، وكُلَّـما قالَ لَـهُنَّ: لا، قالَـتْ لَـهُ: قُلْ بَلَى، وإنْ طَاوَعَهَا يَوْماً وقَال، قَالَتْ: أَفْرَطْتَ في الدَّلال، فكَـانَ مِنْهـا في مُـشَاغَبَة، وطُـوْلِ جِـدَالٍ ومُعَاتَـبَة، وحَدَثَ في ذاتِ يَوْم، وهُمَا يَسْتَعِدَّانِ للنَّوْم، أَنِ اقْتَـرَبَتْ مِنْهُ تَقُوْلُ لَه، وكَانَ السَّأَمُ قَدْ أَثْقَلَه:

يَا سَيِّدِي اللَّبِيْب، إنَّ سِيَاسَةَ التَّأْدِيْـب، أنْ نَـنْظُرَ إلى المُـسْتَقْبَل، ونَمْـضِيَ نَحْـوَ الأَفْـضَل، ولا يَنْبَغِي أنْ تُعَنِّفَ البَنَات، أوْ أنْ تَسْكُتَ عَلَى ما فَات، ولا بُدَّ أنْ تَـتَّبِـعَ إسْتِرَاتِيْجِيَّةً وَاضِحَة، وتَسْتَفِيْدَ مِنْ تَـجَارِبِ الشُّعُوْبِ النَّاجِحَة، ولا شَكَّ أنَّ الـخَلَـلَ فِيْك، ولا بُدَّ مِنْ تَكْمِـيْمِ فِيْـك، فأنـتَ لَـمْ تَطَّلِعْ عَلَى المَـنَاهِجِ الـحَدِيْثَة، وتَنْقُصُكَ لِبُلُوْغِ الوَعْيِ خُطىً حَثِيْثَة، وما أَحْوَجَكَ إلى دَوْرَةٍ تَأْهِيْلِيَّـة، في عِلْمِ الذَّاتِ والبَرْمَـجَةِ اللُّغَوِيَّة، ففي الـحَقِيْقَةِ والوَاقِع، أنْتَ في الـجَهْلِ وَاقِـع، وتَفْتَقِـدُ مُعْظَـمَ المَهَارَات، كَمَا أَثْبَتَتِ الدِّرَاسَات، فَائْذَنْ لي أَنْ أَخْتِمَ الكلام، بِأَحْدَثِ الإِحْصَائِيَّاتِ والأَرْقام.

فقَاطَعَها الزَّوْجُ المَكْدُوْد، وصَاحَ: لِلصَّبْرِ حُدُوْد، فجَذَبَـها إليهِ مِنْ شَـعْرِها، وأَعْلَمَهـا حَقِيْقَـةَ قَدْرِها، وصَفَعَها عَلَى خَدِّها، وأَوْقَفَها عِنْدَ حَدِّها، وتَـرَكَها وخَرَج، وسَـأَلَ اللهَ الفَـرَج، ثُـمَّ أَخْـرَجَ قَلَمَهُ وقِرْطَاسَه، وكَتَبَ بَعْدَ أنِ اسْتَجْمَعَ أَنْفَاسَه:

لَقَدْ تَزَوَّجْتُ مِنْ خَرْقَاءَ بَارِدَةٍ ... تَضَاعَفَ الرُّزْءُ فِيْهَا وَانْتَهَى أَسَفِي

يَكَادُ يَجْمُدُ مِنْهَا فِي العُرُوْقِ دَمِي ... لَوْلا حَمِيْمُ الأَسَى مِنْ مَدْمَعِي الوَكِفِ

خَصَصْتُهَا بِوِدَادٍ خَالِصٍ، وَأَنَا ... خُصِصْتُ مِنْها بِسُوْءِ الكَيْلِ وَالحَشَفِ

تَهْذِي عَلَيَّ بِأَقْوَالٍ مُطَلْسَمَةٍ ... وَتَمْضَغُ الحَرْفَ مَضْغَ الشَّاةِ لِلعَلَفِ

إذا احْتَضَنْتُ بَنَاتِي أوْ رَفَعْتُ يَدِي ... بِالزَّجْرِ فِيْهِنَّ صَاحَتْ بِي: كَفَاكَ قِفِ

تَقُوْلُ إنَّ (اسْتِرَاتِيْجِيَّتِي) خَطَأٌ! ... فَاسْمَعْ حَدِيْثِي، وَمِنْ يَنْبُوْعِيَ ارْتَشِفِ

ثُمَّ انْبَرَتْ بِحَدِيْثِ السُّخْفِ تُخْبِرُنِي ... بِمَا وَعَتْهُ مِنَ التِّلْفَازِ وَالصُّحُفِ

سَخَافَةٌ لَمْ يَقُلْهَا التَّرْبَوِيُّ، ولَمْ ... يَنْطِقْ بِهَا غَيْرُ مَخْذُوْلٍ وَمُعْتَسِفِ

بَقِيَّةٌ مِنْ تَجَارِيْبٍ وَفَلْسَفَةٍ ... مَا ثَمَّ فِيْهِنَّ لِلْوَاعِيْنَ مِنْ هَدَفِ

وَحِيْنَمَا أَكْثَرَتْ لِي مِنْ تَفَلْسُفِهَا ... وَسَاقَتِ القَوْلَ فِي كِبْرٍ وَفِي صَلَفِ

صَفَعْتُهَا بِيَمِيْنٍ لَوْ صَفَعْتُ بِهَا ... مَيْتاً لَقَامَ عَلَى رِجْلَيْهِ كَالأَلِفِ

وَزِدْتُهَا بِصُدُوْدِي كُرْبَةً وَجَوىً ... وَنِمْتُ فِي مَكْتَبِي.. رَأْسِي عَلَى كَتِفِي

تَرَكْتُهَا وَحْدَهَا فِي حِضْنِ وَحْشَتِهَا ... وَصِحْتُ: (بِالإِسْتِرَاتِيْجِيَّةِ) الْتَحِفِي

فَمَا أَتَتْ مِنْ لَيَالِي الهَجْرِ ثَالِثَةٌ ... إلاّ وَنَحْنُ كَعُصْفُوْرَيْنِ فِي كَنَفِ

٢٣ – «في الانْتِخَابِ فِخَاخُ أَطْمَاعٍ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الأَمْرِ ظَاهِرُهُ الـخَيْر، وبَاطِنُهُ يَنْطَوِي عَلَى الشَّرِّ والضَّيْر، والانْتِخَابُ اخْتِيَـارُ المُنَاسِب، لِيَقُوْمَ عَلَى بَعْضِ المَـنَاصِب، وقَدْ يُتَّخَذُ ذَرِيْعَةً لِلْوَجَاهَةِ والمَغَانِم، وتُبْذَلُ في سَبِيْلِهِ الأَمْوَالُ والوَلائم، وطَالَـمَا تَـحَزَّبَتْ في الانْتِخَابِ فِئات، فجَادُوا عَلَى مُرَشَّحِهِمْ بِالأَصْوَات، لِكَوْنِـهِ أَجْـزَلَ لَـهُمُ الوُعُوْد، أَوِ انْتَخَى بِـهِمُ الآبَاءَ والـجُدُوْد.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ زَعِيْمَ بَادِيَة، اسْتَقَرَّ بِرَعِيَّتِهِ في بُقْعَةٍ نَائِيَة، ولَـمْ يَزَالُوا يُثْنُوْنَ عَلَى سِـيْرَتِه، وعَـلَى عَدْلِهِ في سِيَاسَةِ عَشِيْرَتِه، وكَانَ عَلَى الـجِوَارِ مِنْهُمْ أَعَاجِم، لَـهُمْ عَـادَةٌ في اخْتِيَـارِ الـحَاكِم، حَيْـثُ كَانُوا يَـجْتَمِعُوْنَ ويَـخْتَارُوْن، ثُمَّ يُقَاسِمُوْنَهُ إدَارَةَ الشُّؤُوْن، وإنْ خَـالَفَهُمْ في أَمْـرٍ عَزَلُـوْه، ورُبَّمَـا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وقَـتَلُوْه، وعَلِمَ أَحَدُ الرُّعَاةِ بِـتِلْكَ العَادَة، وكَانَ مَوْلًى دَخِيْلاً يَكْرَهُ أَسْيَادَه، فأَفْشَى مـا رَآهُ بَيْنَ الرُّعْيَان، واقْتَـرَحَ عَلَيْهِمْ تَقْلِيْـدَ الــجِيْرَان، فكَاشَـفُوا زَعِـيْمَهُمْ بِـالاقْتِرَاح، وأَثْقَلُـوا عَلَيْـهِ بِالإلْـحَاح، وعَـرَضُوا عَلَيْهِ إقْرَارَ الانْتِخَاب، عَلَى أَنْ يَظَلَّ مَـحْمِيَّ الـجَنَاب، ويَـخْتَارَ هُوَ الـوُزَرَاءَ والأَتْبَاع، ويَتْـرُكَ لَسِوَاهُ شُؤُوْنَ الرَّعَاع، فأَقَـرَّهُمُ الزَّعِيْمُ عَـنْ حُـسْنِ نِيَّـة، وتَــرَكَهُمْ يُـدَبِّرُوْنَ أَمْـرَ الرَّعِيَّة، فأَشْغَلُوا العَشِيْرَةَ بِالتَّصْوِيْتِ والاقْتِرَاع، وضَيَّعُوا أُمُوْرَ الرَّعْيِ والازْدِرَاع، ونُصِبَتِ الـخِيَامُ لِلتَّرْشِيْح، وسَخَا بِأَمْوَالِهِ الشَّحِيْح، وزَخْرَفُوا دَعَاوَى التَّطْوِيْر، وأَجَادُوا وَسَائلَ التَّزْوِيْـر، وأُقِيْمَـتِ الوَلائمُ الكَبِيْرَة، وتَـحَزَّبَ أَبْنَـاءُ العَـشِيْرَة، ودَخَـلَ في نُفُوْسِـهِمُ الـشَّتَات، وصَـارُوا بَعْـدَ الوَحْـدَةِ جَمَاعَات، ففَازَ المَوَالِي بِثَلاثَةِ مَقَاعِد، وظَفِرَ الرُّعَاةُ بِمَقْعَدٍ وَاحِد، ومَرَّتْ بِــهِمُ الأَعْـوَامُ ولا جَدِيْـد، وأَحْوَالُـهُمْ في احْتِدَامٍ شَدِيْد.

وفي العَامِ الـخَامِسِ مِنَ الانْتِخَاب، اجْتَـرَؤُوا عَـلَى مَــحْمِيِّ الــجَنَاب، ورَأَوا أَنَّ احْتِـدَامَهُمُ القَدِيْم، سَبَـبُهُ كُرْهُ بَعْضِهِمْ لِلزَّعِيْم، فقَرَّرُوا أَنَّ تَنْحِيَتَهُ أَوْلَى، ونَصَّبُوا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ المَوْلَى، وحِيْنَ هَـمَّ الزَّعِيْمُ بِالارْتِـحَال، الْتَفَتَ عَلَى العَشِيْرَةِ وقَال:

قَـدْ سُــسْتُكُمْ بِالعَـدْلِ مُنْتَهِجاً   نَــهْجَ امْـرِئٍ لِلْخَـيْرِ مُنْـصَاعِ

فَلْتَنْقُلُــوا عَنِّــي مُكَابَـــدَةً   ضَاقَتْ بِـهَا يَا قَـوْمِ أَضْـلاعي:

في كَثْـــــرَةِ الآرَاءِ فُـــــرْقَتُكُمْ   وَفي الانْتِخَـابِ فِخَــاخُ أَطْـمَاعِ

لا شَيْءَ أَبْخَـسُ مِــنْ مُـشَارَكَةٍ   وَالـبَخْسُ في المَـوْزُوْنِ لا الـصَّاعِ

هَـــذَا أَنَـــا أَدْعُـــو إِلَى رَشَـــدٍ   وَاللهُ يَعْلَـــمُ حَـــسْرَةَ الـــدَّاعي

اثْنَـــيْنِ لا تُعْطُوْهُمَـــا ثِقَـــةً:   مَـوْلاكُمُ المَخْطُـوْمُ، وَالرَّاعــي

يَفِيَـــانِكُمْ حَتَّـــى إذا ارْتَفَعَـــا   غَــدَرَا، وحَطَّــاكُمْ إِلَى القَــاعِ

لا تُـسْلِمُوا النَّــذْلَيْنِ أَنْفُـسَكُمْ   إِنْ كَـانَ فِـيْكُمْ حَـاذِقٌ وَاعــي

فَلَقَـدْ رَأَيْـتُمْ كَيْـفَ خَـادَعَنِي   مَـنْ لَــمْ يُــخَلْ يَوْمـاً بِخَـدَّاعِ

زَانَـــا بِعَيْنَـــيَّ انْتِخَابَــــهُمَا   وَاسْتَـثْنَـيَا عَـرْشِي وأَتْبَـاعي

وَالآنَ هَــا أَنَــذَا طَرِيْــدُ فَــلاً   أَصْـــلَى مَـــرَارَاتِي وأَوْجَـــاعي

٢٤ – «لا أَجْحَدَ مِنْ أُنْثَى»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ جَحَدَ الفَضْلَ الـجَزِيْل، وتَنَاسَى كُلَّ مَا صُـنِعَ بِـهِ مِـنْ جَمِيْـل، وَخُـصَّتِ الأُنْثَى بِالنُّكْرَان، لِكَوْنِـها أَسْرَعَ إلى النِّسْيَان، ولأنَّـها مَطْبُوْعَةٌ عَلَى الشَّكْوَى، وعَلَى غَيْرِ الـخِصَامِ لا تَقْوَى.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ شَابّاً كَثِيْرَ المَال، بَلَغَ بِعُمْرِهِ وعَقْلِهِ مَبْلَغَ الرِّجَـال، وكـانَ أَهْلُـهُ يُـشِيْرُوْنَ عَليـهِ بالزَّوَاج، مِنْ فَـتَاةٍ كَثِيْرَةِ المَالِ مِغْنَاج، فكَانَ يَرْفُضُ كُلَّ الرَّفْض، ولا يَقْبَلُ مِنْهُمْ أَيَّ عَرْض، إذْ كَـانَ سَمِعَ مِنْ مُعَلِّمِه، جُمْلَةً مُـخْتَارَةً مِنْ حِكَمِه، ومِنْ بَيْنِ ما سَمِعَهُ ووَعَاه، مِنْ تِلْكَ الـحِكَمِ ما مَعْنَاه:

خَيْرُ الـجِيَادِ الـحَسِيْبَةُ الكَرِيْمَة، وخَيْرُ النِّسَاءِ الفَقِيْرَةُ الدَّمِيْمَة، فالـجَوَادُ الـحَـسِيْبُ يَفُـوْزُ في السِّبَاق، والمَرْأَةُ الفَقِيْرَةُ تَصْبِرُ عَلَى الإِمْلاق، وتَشْكُرُ في كُثْرِها وقُلِّها، وتَـخْـشَى العَـوْدَةَ إلى أَهْلِهـا، كَمَا أنَّ الدَّمَامَةَ تُوْرِثُ الـخُلُقَ القَوِيْم، وتُكْسِبُ الزَّوْجَ الأَجْرَ العَظِيْم، وتُبْعِدُ عَنِ الزَّوْجَةِ الأَنْظَـار، وتُرِيْحُ الزَّوْجَ مِنَ العَار، وذَلِكَ كُلُّهُ أَحْرَى لِلتَّوْفِيْق، وبِالدَّوَامِ والسَّعَادَةِ خَلِيْق.

فعَزَمَ الشَّابُّ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْ فَـتَاة، لا تَـحْمِلُ إلاّ تِلْكَ الـصِّفَات، فتَـرَكَ مَدِيْنَـتَهُ المَعْمُـوْرَة، وبَحَثَ في القُرَى المَهْجُوْرَة، إلى أنْ وَجَدَ دَاراً مُـخِيْفَة، هَوَتْ مِـنْ أَعْلاهـا الـسَّقِيْفَة، وأَمَـامَ البَـابِ شَيْخٌ مُسِنّ، لَـمْ يَبْقَ في فَمِهِ سِنّ، ورَأَى خَلْفَهُ فَـتَاةً ظَاهِرَةَ الـحَوَل، يُطِـلُّ مِـنْ هُـوَّةِ أَنْفِهـا جُعَـل، وأَسْنَانُـها بَارِزَةٌ لِلأَمَام، ولِلسُّوْسِ فِيها أَهْنَأُ مَقَام، وكَانَتْ تَنْفِضُ القَمْلَ عَلَى العَتَـبَة، وتَلْهُو بِعَظْمَةٍ وخَشَبَة، فَسُرَّ بِمَرْآها الغُلام، وقالَ: هِيَ غَايَةُ المَرَام، فنَقَدَ أَبَاها المَال، وتَزَوَّجَها في الـحَال، فأَصْـلَحَ مِنْها ما يُمْكِنُ إِصْلاحُه، وطَارَ بِـها تَـحْدُوْهُ أَفْرَاحُـه، وأَسْـكَنَها قَـصْرَهُ المَهِيْـب، وكَاشَـفَها بِغَرَامِـهِ

المُذِيْب، ثُمَّ أَجْرَى لَـها مِئةَ عَمَلِيَّةِ تَـجْمِيْل، مَعَ أَنَّ هَيْئَتَها لا تَقْبَلُ التَّعْدِيْل، واشْتَـرَى لَـــها الـذَّهَبَ والأَلْـمَاس، وفَاخِرَ الزِّيْنَةِ واللِّبَاس، وخَصَّها بِسَائقَيْنِ وثَلاثِ خَادِمَات، وجَعَلَهُمْ رَهْـنَ إِشَارَتِـــها كُلَّ الأَوْقَات، ومَنَحَها مَا لَيْسَ عَلَيْهِ مَزِيْد، وصَارَ لَـها فِي المَصْرِفِ رَصِيْد، كَـمَا طَـافَ بِـــها البُلْـدَانَ والمَعَالِـم، وأَطْعَمَها فِي أَفْخَرِ المَطَاعِم، وعَلَّمَها الأَكْلَ بِالمِلْعَقَـة، وكَانَـتْ تَـحْـسَبُها مِطْرَقَـة، وظَـلاّ أَعْوَاماً عَلَى هَذِهِ الـحَال، فِي أَتَمِّ نُعْمَى وأَسْعَدِ بَال.

وفِي لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ بَطِيْئَةِ النُّجُوْم، دَخَلَ الزَّوْجُ بَيْتَهُ وهوَ مَهْمُوْم، فنَسِـيَ أَمْرَ الشَّرِيْكَة، ونَـامَ عَـلَى الأَرِيْكَة، وكَانَتْ زَوْجَتُهُ تَنْتَظِرُهُ فِي الغُرْفَة، وتَرْتَقِبُ دُخُوْلَهُ عَلَيْها فِي لَـهْفَة، فلَـمَّا اسْتَبْطَأَتْ مَـجِيْئَهُ إِلَيْها، وخَيَّمَتْ سَطْوَةُ المَلَلِ عَلَيْها، عَلاها الوَجَلُ والارْتِيَاك، إِلى أَنْ أُخْبِرَتْ بِنَوْمِهِ هُنَـاك، فهَبَطَـتْ إِليهِ مُسْرِعَةً مُـجِدَّة، وسَحَبَتْ مِنْ تَـحْتِ رَأْسِهِ المَخَدَّة، وجَذَبَتْهُ مِنْ كَتِفَيْه، ثُمَّ صَرَخَتْ عَلَيْه:

أَلاَ سُحْقاً لِبُرُوْدِكَ يا أَلأَمَ اللُّؤَمَاء، تَـتْـرُكُنِي وَحْـدِي وتَنَـامُ فِي هَنَـاء، وَاللهِ إِنَّنِـي أَعْلَـمُ أَنَّـكَ خَسِيْس، لَـمْ أَلْقَ مَعَكَ إِلاّ العَيْشَ التَّعِيْس، صَبَرْتُ عَلَيْكَ السِّنِيْنَ الطِّوَال، ولَـــمْ أَجِـدْ مِنْـكَ غَـيْرَ الإِهْمَال، وبَذَلْتُ لَكَ النَّفِيْسَ الغَالِي، وأَنْتَ بِي لا تُبَالِي، وحَمَلْتُ لأَجْلِكَ الأَحْمَال، وأَنْتَ لا مَـالَ ولا جَمَال، وإِلاّ قُلْ لِي مَنْ تَصْبِرُ عَلَى نَكَدِك، وتَرْضَى أَنْ تَضَعَ يَدَها فِي يَدِك؟، إِلاّ مَنْحُوْسَةٌ مِـثْلِي، بَـاعَنِي لَكَ أَهْلِي، وقَدْ كانَ الـخُطَّابُ مِنْ كُلِّ الـجِهَات، يَرْقُبُوْنَ مِنِّي أَدْنَى الْتِفَـات، فلَيْـتَ أَنَّنِـي عَـانِس، ولَـمْ أَتَزَوَّجْكَ يا بَائس، فقُمْ أَيُّـها المَجْنُوْن، وأَحْضِرِ الـمَأْذُوْن، فلا صَبْرَ لِي عَلَى العَيْشِ الـــجَدِيْب، ولا النَّظَرِ إِلى وَجْهِكَ الكَئِيْب.

وما زَالَتْ تَصِيْحُ وتَشْتُم، وتَرْكُلُ المِـسْكِيْنَ وتَلْكُـم، وهـوَ فِي مَكَانِـهِ مُـنْكَمِش، ومِـنَ الرَّهْبَـةِ يَرْتَعِش، ثُمَّ نَـهَضَ مِنْ أَرِيْكَتِهِ واعْتَدَل، ونَفَثَ عَـنْ شِـمَالِهِ وتَفَـل، فعَـادَتْ إِليـهِ بَعْـضُ الـسَّكِيْنَة،

وأَحْكَمَ سَيْطَرَتَهُ عَلَى السَّفِيْنَة، ولَوْ سَدَّدَ لَـها ضَرْبَةً في الرَّاس، لَسَقَطَتْ مِنْها خَمْسَةُ أَضْرَاس، ولَكِنَّهُ آثَـرَ الصَّمْتَ والانْكِفَاء، وعَلِمَ أنَّـها طَبِيْعَةُ النِّسَاء، ولا حِيْلَةَ فِيها ولا جَدْوَى، فـدَعا بِالـصَّبْرِ عَـلَى البَلْوَى، ثُمَّ أَخْرَجَ قِرْطَاسَهُ وقَلَمَه، وكَتَبَ وهوَ يُغَالِبَ أَلَـمَه:

تَـــــمَادَتْ بي تَـبَارِيْـــــحي | فَيَـــا لِـلَّــــهِ مــــا أَلْقَـــى
وَمَــــادَتْ بي ذُرَى صَـــبْري | وَكَـــانَ الــــصَّبْرُ لي خُلْقــــا
تَزَوَّجْـــــتُ التــــي أَرْجُـــو | فَــــمَا أَقْبَحَهــــا خَلْقــــا
تَــــــرَى فِيْهــــا ثـــــآليلاً | وأَنْيَابـــــاً لَــــــهَا زُرْقــــا
فَـــــإِنْ شَـــــبَّهْتَها يَوْمـــــاً | بِنَـــــسْنَاسٍ فَـــــلا فَرْقــــا
فَأَوْسَـــــعْتُ لَـــــهَا قَلْبـــــي | وَتُيِّمْــــــتُ بِــــــهَا عِـــــشْقا
وَقَـــــدْ أَكْرَمْـــــتُ مَثْواهــــا | وَلاقَـــــتْ مِنِّـــــيَ الرِّفْقــــا
وَأَحْـــــسَنْتُ لَهــــا دَهْـــــراً | وَطُفْنَــــا الغَـــــرْبَ والـــــشَّرْقا
وَقُلْـــــتُ: الآنَ أَجْنِــــي مِــــنْ | نُخَــــيْلاتِ الرِّضَــــا عِــــذْقا
فَــــمَا صَـــــحَّتْ حِـــــسَابَاتي | وَلا حَدْسِـــــي بِــــهَا اسْـــتَوْقى
فَـــــمَا أَخْيَـــــبَ آمـــــالي | وَمَـــــا أَكْثَـــــرَنِي حُمْقـــــا
رَأَتْنِـــــي أَشْتَـــــكِي هَـــــمِّي | وَأَحْــــزَانِي مَعِــــي غَرْقـــى
فَلَــــمْ تُـــــسْعِفْ بِإِنْجَــــادٍ | ولَــــمْ تَــــرْتِقْ مَعِــــي فَتْقــــا
وَظَنَّــــــتْ أَنَّنِــــــي سَـــــالٍ | وَخَالَــــــتْ ظَنَّهــــا حَقّـــــا

فَجَرَّتْنِـــي عَـــلَى وَجْهِـــي وَقَالَـــــتْ لي: أَلاَ سُـــــحْقا

تَنَاسَـــــتْ كُـــلَّ إحْـــسَاني وَأَرْخَـــتْ لِلْخَنَـــا شِـــدْقا

وَخَـــــصَّتْنِي بأَوْصـــــافٍ إلى الـخِـنْـزِيْـــرِ لا تَـــرْقى

وَظَلَّـــتْ تَـــكْفُرُ النُّعْمَـــى وَتَـــرْجُو مِنِّـــيَ العِتْقـــا

لأَنَّ البُـــؤْسَ أَضْـــنَاها! وَشُـــحِّي زَادَهـــا خَنْقـــا!

فَـــلا أَجْحَـــدَ مِـــنْ أُنْثَـــى وَلا أَغْبَـــى وَلا أَشْـــقى

٢٥ – «لا مُهَانَ كَدَائن»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيمَنْ أَهَانَهُ نُبْلُـه، وأَصْـمَاهُ مِـنْ قَـوْسِ مُـجْتَدِيْهِ نَبْلُـه، والـدَّائنُ هُنَـا مُقْـرِضُ الصَّحْبِ مالَه، والمُرْخِي عَلَى سَوْءاتِـهِمْ سِرْبَالَه، ورَجَا بِقَرْضِهِ الأَجْرَ والثَّوَاب، فكَانَ جَزَاءَهُ المَطْـلُ والسِّبَاب.

وأَصْلُ المَثَـلِ أنَّ رَجُـلاً ابْتُلِــيَ بِالـشَّهَامَة، وأَرْخَـى في نَجْـدَةِ الأَصْـحَابِ زِمَامَـه، فكَـانَ إذا اسْتَصْرَخَهُ لاهِثٌ، أَقْرَضَهُ ما يَقِيْهِ الـحَوَادِث، ثُمَّ اتَّفَقَ مَعَهُ عَلَى مَوْعِدِ السَّدَاد، ودَعا اللهَ لهُ بِالتَّوْفِيْقِ والسَّدَاد، فلَمْ يَبْقَ مِنْ أَصْحَابِهِ مُـحْتَاج، إلاّ وأَحَالَ ضِيْقَهُ إلى انْفِرَاج، وكَانُوا يَتَـوَدَّدُوْنَ إِلَيْـهِ سَـاعَةَ القَرْض، ويَكَادُوْنَ يُقَبِّلُوْنَ أَمَامَهُ الأَرْض، وهوَ يَـجْذِبُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ يَمِيْنَه، ولا يَرْضَى لَـهُمْ حَالَـةً مَهِيْنَة، وهَكَذا كَانَ في رِفْقِهِ ومَوَدَّتِه، لا يَكَادُ يَـحْرِمُ أَحَداً مِنْ نَجْدَتِه.

فلَـمَّا انْقَضَتْ مُدَّةُ ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَه، طَافَ عَلَى أَصْحَابِهِ يَسْتَوْفِـي دَيْنَـه، فطَـرَقَ بَـابَ الـصَّاحِبِ الأَوَّل، فصَاحَ في وَجْهِهِ وأَعْوَل، وقالَ: لا سَبِيْلَ إلى التَّقَاضي، واذْهَبْ متَى شِئتَ إلى القَـاضي، ثُـمَّ عَاجَلَ وَجْهَهُ بِـبَصْقَة، وأَسْمَعَهُ مِنْ بَابِهِ صَفْقَة، ومَرَّ عَلَى صَاحِبِه الثَّاني، فأَقْـسَمَ لـهُ بِالمَثَـاني، أَنَّـهُ لا يَمْلِكُ قُوْتَ يَوْمِه، وأنَّ إفْطَارَهُ مِثْلُ صَوْمِه، وطَلَـبَ مِنْـهُ الإمْهَـال، إلى صَـلاحِ الـحَال، وأَمَّ بَيْـتَ ثَالِثِ أَصْحَابِه، فطَالَ وُقُوْفُهُ عَلَى بَابِه، ثُمَّ خَرَجَ إليهِ أَحَدُ بَنِـيْه، وقَالَ والتَّلَعْثُمُ مِـلْءُ فِيْـه:، أَبِــي في سَفَرٍ قَدْ يَطُوْل، فلا يَكُنْ مِنْكَ قُفُوْل، وقَصَدَ صَاحِبَهُ الرَّابِـع، بَعْدَ أنْ رَصَـدَهُ في الـجَامِع، فالْتَفَـتَ إليهِ لَفْتَةَ المُكْتَسِح، وقالَ لهُ: يا لَكَ مِنْ وَقِح، تَـرَاني مُنْشَغِلاً بِالصَّلاةِ والابْتِهَـال، وأَنْـتَ تَـرْصُدُني تُـرِيْدُ المَال، فاغْرُبْ عَنْ وَجْهِي شَقِيْتَ وخُزِيْت، ولا سَلِمْتَ مِـنَ الأَذَى ولا وُقِيْـت، ولَـنْ أَفِيَـكَ

شَيْئاً مِنْ مَالِك، رَدْعاً لَكَ ولأَمْثَالِك، وخَرَجَ يَلْتَمِسُ صَاحِبَهُ الخَامِس، فوَجَدَهُ في بَعْضِ المَجَالِس، فلَمَّا رَآهُ صَاحِبُه، انْعَقَدَ مِنْهُ حَاجِبُه، وقالَ: سَبَقَ مِنْكَ الإصْلاح، فلا تُفْسِدْهُ بِالمَنِّ والإلْحَاح، ثُمَّ إنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيْك، وسَاقَ جَزِيْلَ فَضْلِهِ إلَيْك، وما أَرَاكَ بِمُحْتَاج، فدَعْ عَنْكَ اللَّجَاج، واعْلَمْ أنَّ الخِصَام، مِنْ طِبَاعِ اللِّئَام، وإنِّي إخَالُكَ كَثِيْرَ اللُّؤْم، وفي وَجْهِكَ عَلامَاتُ الشُّؤْم، وهَا أَنَذَا بَدَأْتُ مِنْكَ أَضِيْق، فلا تَضْطَرَّنِي إلى ما لا يَلِيْق، فاحْمَدِ اللهَ عَلَى العَافِيَة، ولا تُرِني وَجْهَكَ مَرَّةً ثَانِيَة.

فآثَرَ الدَّائنُ أنْ يَسْتَرِيْح، وألاّ يَسْتَمْسِكَ بِالرِّيْح، وأَقْسَمَ باللهِ ذي الجَلال، ألاّ يُسْعِفَ مُعْوِزاً بِمَال، وألاّ يُنْجِدَ أَحَداً مِنْ كَمَدِه، ولَوْ كَانَ فَلْذَةَ كَبِدِه، ثُمَّ صَعَدَ مَنَارَةَ المَسْجِد، وأَنْشَأَ مِنْ غَيْظِهِ يُنْشِد:

يَا مَعْشَرَ النُّبَلاءِ لا يَأْخُذْكُمُ ... في مُعْوِزٍ عَطْفٌ وَلا تَتَأَثَّروا
يَسْتَفُّ بِاسْمِ القَرْضِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ... وَلَوِ اسْتَبَنْتُمْ فَهْوَ لِصٌّ أَكْبَرُ
يَأْتِي إلَيْكُمْ شَاكِياً أَحْوَالَهُ ... وَدُمُوْعُهُ مِنْ عَيْنِهِ تَتَحَدَّرُ
وَيَظَلُّ يَسْتَجْدِي سَمَاحَ نُفُوْسِكُمْ ... وَلِسَانُهُ الخَدَّاعُ شَهْدٌ يَقْطُرُ
لا تُحْسِنُوا فِيْهِ الظُّنُوْنَ فَإنَّهُ ... أَدْهَى الوَرَى، وَمِنَ الثَّعَالِبِ أَمْكَرُ
لَوْ أَنَّنِي أَخْبَرْتُكُمْ بِأَذِيَّتِي ... مِنْ مِثْلِهِ لَشَجَاكُمُ مَا أُخْبِرُ
أَقْرَضْتُ أَصْحَابِي فَلَمَّا جِئْتُهُمْ ... مُسْتَوْفِياً بَصَقُوا عَلَيَّ وَأَنْكَروا
وَأَقَلُّ مَا لاقَيْتُ مِنْ نُكْرَانِهِمْ ... وَغْدٌ يُمَاطِلُنِي، وَآخَرُ يَزْجُرُ
فِيْما مَضَى كُنْتُ العَزِيْزَ لَدَيْهِمُ ... وَاليَوْمَ هَا أَنَذَا العَدُوُّ الأَخْطَرُ

قَــدْ أَشْــرَبُوْني بِالَمهَانَــةِ عَلْقَــماً وَشَرَابُــهُمْ مِـنْ قَبْـلُ عِنْـدِي الـسُّكَّرُ

فـإِذا أَرَدْتُـمْ حِفْـظَ مَـاءِ وُجُـوْهِكُمْ لا تُـقْرِضُوا أَحَـداً، وَمِنِّـي اسْـتَعْبِرُوا

فَلَقَــدْ رَأَيْــتُمْ.. لا مُهَــانَ كَــدَائنٍ هُــوَ في اللَّظَــى، وَالُمـسْتَدِيْنُ يُــسَعِّرُ

وَإِذا أَبَــى إِلاّ الــشَّهَامَةَ نُــبْلُكُمْ فَلْتَسْتَعِيْــضُوا بِالتَّــصَدُّقِ تُــؤْجَروا

٢٦ – «لَوْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ لَـمْ تُشَامِخْ»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ لِلسَّادِرِ في ضَلالِه، المُعْرِضِ عَنِ التَّفَكُّرِ في حَالِه، ثُمَّ نَـشَأَتْ لَـهُ نِعْمَـةٌ حَدِيْثَـة، فلَقِسَتْ نَفْسُهُ الـخَبِيْثَة، ورَأَى الكِبْرَ عَلَى البَرِيَّة، ولَـمْ تَكُنْ لَـهُ مِـنْ قَبْـلُ أَهَمِيَّـة، والتَّـشَامُخُ تَـصَنُّعُ الشُّمُوْخ، والتَّـبَاهي بِرَأْسٍ مَنْفُوْخ.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ رَجُلاً كَانَ لهُ جارٌ قَدِيْم، وبَيْـنَهُمَا مِـنَ الـوِدَادِ قَـدْرٌ عَظِـيْم، فكَانَـا إذا اجْتَمَعَـا يَتَصَافَعَان، وبِكُلِّ فُنُوْنِ المُـزَاحِ يَأْتِيَان، ولَـمْ يَكُنْ في قَلْبَـيْهِمَا إلاّ الإخَـاء، وكَانَـا مَـضْرِبَ المَثَـلِ في الوَفَـاء، فـشَاءَ ذُو الـنِّعَمِ العَمِيْمَـة، أنْ يُوَاصِـلَ الـجَارُ تَعْلِيْمَـه، ومَـعَ أنَّـهُ كـانَ مَـحْدُوْدَ الفَهْـمِ والاسْتِيْعَاب، وبَيْنَهُ وبَيْنَ النُّـبُوْغِ أَبْوَابٌ وحُجَّاب، إلاّ أَنَّهُ تَابَعَ في العِلْمِ مَسْرَاه، حَتَّـى حَـصَلَ عَـلَى الدُّكْتُوْرَاه، ففَرِحَ لهُ نَدِيْمُهُ وبَارَك، ودَعَا لهُ اللهَ تَـبَارَك، ولَكِنَّ الـجَارَ ذَا الدَّال، بَدَأَ يَزْهُو ويَـخْتَال، فرَفَضَ الصَّفْعَ عَلَى قَفَاه، ولَيْتَ أنَّ رَفْضَه كَفَاه، بَلْ لَـمْ يَعُدْ يُـزَاوِرُ نَدِيْمَه، ولا يَـرُدُّ عَلَيْهِ تَسْلِيْمَه.

وحِيْنَ ضَاقَ بالنَّدِيْمِ الـحَال، أَقْسَمَ بِذِي العِزَّةِ والـجَلال، أنْ يُسْمِعَهُ قَصِيْدَةً عَـصْمَاء، تَـسْري أَصْدَاؤها في الأَنْحاء، فاعْتَـرَضَهُ اعْتِرَاضَ المُنْدَفِع، وأَنْشَدَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِع:

لَـحَاكَ اللهُ مِـنْ رَجُـلٍ ضَـئِيْلٍ ... يَـتِـيْهُ عَـلَى أَحِبَّتِـهِ بِـ(دَالِ)

وَلَوْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ لَـمْ تُـشَامِخْ ... بِمِنْخَـرِكَ القَـصِيْرِ ذُرَى الـجِبَالِ

فَـمَا في التِّيْـهِ لِلْعُقَـلاءِ فَخْـرٌ ... وَلَكِـنْ في المَقَـالِ وفي الفَعَـالِ

أَتَـذْكُرُ إذْ ثِيَابُـكَ بَالِيَـاتٌ؟ ... وَأَنْفَـكَ إذْ يَـسِيْلُ عَـلَى السِّبَالِ؟

وَإِذْ تَجْرِي تُطَارِدُ كُلَّ هِرٍّ وَتَمْشِي فِي الطَّرِيْقِ بِلا نِعَالِ؟

وَإِذْ تَأْوِي إلى سَطْحِي طَرِيْداً وَتَقْضِي فِي مُنَادَمَتِي اللَّيَالي؟

غَدَاةَ قَفَاكَ يَعْكِسُ رَجْعَ صَفْعِي وَأَنْتَ مِنَ السَّعَادَةِ لا تُبَالِي

فَسُبْحَانَ الذي أَعْطَاكَ (دَالاً) وَزَادَكَ رِفْعَةً بَعْدَ اسْتِفَالِ

٢٧ – «مَا تَقَعَّرَ إلاّ حِيْنَمَا انْقَعَرُوا»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنِ اضْطُـرَّ إلى المُجَـارَاة، وسَـاقَتْهُ إلى مـا لا يَـوَدُّ خُطَـاه، والتَّقَعُّـرُ تَـكَلُّفُ الفَصَاحَة، واجْتِنَابُ اللِّيْنِ والسَّماحَة، والانْقِعَارُ مُنْـتَـهَى التَّقَعُّر، وغَايَةُ التَّخَلُّفِ والتَّقَهْقُر، وانْقَعَـرَ الرَّجُلُ يَنْقَعِرُ انْقِعَارا، أَيْ تَـرَكَ القَوْمَ مِنْ تَقَعُّرِهِ حَيَارَى، وانْقَعَـرَتِ المَرْأَةُ فهيَ مُنْقَعِرَة، أَيْ خَـارَتْ خُـوَارَ البَقَـرَة، والمُنْقَعِـرُوْنَ جِـنْسٌ مِـنَ المُـتَقَعِّرِيْن، أَسَاسُـهُمْ في العِـيِّ مَتِـيْن، يَلْهَجُـوْنَ بِغَرِيْـبِ الأَحَادِيْث، ولَـمْ تَـزَلْ تَأْكُلُهُمُ البَرَاغِيْث.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ شَاعِراً رَقِيْقَ اللَّفْظ، رَمَاهُ عَلَى المُنْقَعِرِيْنَ سُـوْءُ الـحَظّ، وكَـانُوا مَـعَ انْقِعَـارِهِمْ غِلاظَ الطَّبْع، يُعَامِلُوْنَ النَّاسَ بِالزَّجْرِ والرَّدْع، كَثِيْرِي الارْتِيَابِ في المَقَاصِد، وسِوَاهُمْ مِـنَ العَـالَمِيْنَ فَاسِد، يُؤْثِرُوْنَ الرَّثَاثَةَ والانْطِوَاء، وعَلَيْهِمْ مِنَ التَّجَهُّمِ سِيْـمَاء، فرَغِبَ الشَّاعِرُ أَنْ يُلاطِفَهُمْ بِالشِّعْر، ويُـرَقِّقَ طِبَاعَهُمْ بِمَا يُلِيْنُ الصَّخْر، فأَنْشَدَهُمْ فُنُوْنَ الأَعَاجِيْب، مِنْ وَعْـظٍ ومَـدِيْحٍ ونَـسِيْب، وحِـيْنَ كَانَ مُسْتَغْرِقاً في الإنْشَاد، كَانُوا يَرْمُقُوْنَهُ بِالنَّظَرِ الـحَادّ، ولَـمَّا فَرَغَ مِنْ تِلْكَ المَوَاجِـد، انْـبَـرَوا عَلَيْـهِ بِقَلْبِ رَجُلٍ وَاحِد، فأَرْجَفُوا في ذَمِّهِ وأَطَالُوا، وكَانَ مِنْ بَعْضِ ما قَالُوا:

لَقَدْ تَـزَبَّـبْتَ يَا حِصْرِم، وَخُضْتَ العُبَابَ الـخِضْرِم، وَاشْمَخْـرَرْتَ بِمِعْطَسٍ أَفْطَس، وَمِثْلُكَ بَعْدُ مَا اقْعَنْسَـس، وَتَـزْعُمُ أَنَّكَ الـجَحْجَاحُ القُـدْمُوْس، وَمَـا جَـزَاؤكَ إلا النُّـقَاخُ بِالعَـسَطُوْس، تَـتَـكَأْكَأُ عَلَى الشِّعْرِ الوَاهِن، وَتُـثِـيْـرُ اخْرِنْطَامَنَـا بِـالمَلاحِن، وَتُنَـاطِسُ في الـوَعْظِ الزَّاجِـر، وَأَنْـتَ هِلَّوْفٌ فَاجِر، وَتُسَامِقُ بِالتَّمْدَاحِ الكَاذِب، بَكَتْ عَلَيْكَ النَّـوَادِب، وَتُطَرْبِـلُ شَرَاسِـيْفَكَ بِـالمُجُوْن،

وَتَسْحَنْفِرُ فِيْهِ يَا مَأْفُوْن، فَيَا لَكَ مِنْ عَصَبْصَبٍ مُنْدَمِك، لا وَدَعَ اللهُ غَـارِزاً في فَمِـك، هَـلاَّ أَطْـسَأْتَنَا بِشِعْرٍ كَشِعْرِ أَبِي عِجَانَة، أَوْ كَشِعْرِ ابْنِ خِرِنْبَاعَ مُسْحَوْحِقِ المَكَانَة.(١)

فأَدْرَكَ الشَّاعِرُ أَنَّهُ يَنْفَخُ في رَماد، ويُـخَاطِبُ جَمَاعَةً مِنْ قَوْمِ عَاد، ثُمَّ حَـمَلَهُ الـهُزْءُ بِـهِمْ عَـلَى المُعَاوَدَة، فهَذَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الغَدِ جَلامِـدَه، وأَنْـشَدَهُمْ شِـعْراً يُـحَيِّـرُ الـجَان، ولا تَـصِلُ إلى مَعَانِيْـهِ

---

(١) تَفْسِيْرُ الفِقْرَة:

لَقَدْ جَعَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ زَبِيْباً نَاضِجاً وأَنْتَ لَـمْ تَنْضُجْ بَعْد، وسَبَحْتَ في بَحْرٍ عَمِيْق، وبَاهَيْتَ بِأَنْفٍ قَصِيْر، ومِثْلُكَ بَعْدُ ما اشْتَدَّ عُوْدُه، وتَـزْعُمُ أَنَّكَ سَيِّدٌ نَبِيْلٌ وَضَخْم، ومَا جَزَاؤكَ إلاّ الضَّرْبُ عَلَى رَأْسِكَ بِالعَصَا، تَسْتَنِدُ عَـلَى الـشِّعْرِ الضَّعِيْف، وتُثِيْرُ غَضَبَنا بِأَخْطَائكَ ولَـحْنِك، وتَـجْعَلُ مِنْ نَفْسِكَ طَبِيْباً يُدَاوِي بالوَعْظِ الرَّادِع، وأَنْتَ كَـذَّابٌ فَـاجِر، وتَتَعَالَى بِالمَدِيْحِ الكَاذِب، قَامَتْ عَلَيْكَ النَّوَائح، وتَـمْلأُ جَوَانِحَكَ بِالفِسْق، وتَـتَمَـادَى فِيْهِ يا مُـخْتَلَّ العَقْل، فيَا لَـكَ مِنْ شَدِيْدِ البَلاءِ سَرِيْعِ الـخَطْوِ فِيْه، لا تَـرَكَ اللهُ ضِرْساً في فَمِك، هَلاّ أَدْسَمْتَنا وأَمْتَعْتَنا بِـشِعْرٍ كَـشِعْرِ أَبِي عِجَانَـة، أَوْ كَشِعْرِ ابْنِ خِرِنْبَاعَ بَعِيْدِ المَكَانَة.

قَالَ الرَّاوِي: وأَبُو عِجَانَةَ شَاعِرٌ يَعْجِنُ الشِّعْرَ عَجْنا، فَلا يُدْرَى أَهوَ شِعْرٌ أَمْ نَظْمٌ أَمْ رُقْيَةُ عَقْرَب، واسْـمُهُ: طَفْحَلَـةُ بْنُ قَوْحَلَة، أَمَّا ابْنُ خِرِنْبَاعَ فَهوَ مِنْ شُعَـرَاءِ الجِنِّ الذِيْنَ أَدْرَكُوا سُلَيْمَانَ –عَلَيْهِ السَّلامُ– وعَصَوْه، واسْـمُهُ قِرْبَـاعُ بْـنُ خِرِنْبَاعَ الدَّجُوْجِي، وقَدْ وُجِدَ لَهُ بَيْتَانِ نُحِتَا عَلَى قُمْقُمٍ عُثِرَ عَلَيْهِ في قَاعِ بَحْر، وهُمَا مِنْ أَوْضَـحِ مـا نَظَـمَ بَعْـدَ تَوْبَتِـه، ويَقُوْلُ فِيْهِمَا:

عَـصَيْتُ سُـلَيْمَانَ النَّبِـيَّ وهَـا أَنَـا ... بِقُمْقُمِـهِ ثَـاوٍ يُـحِيْطُ بِيَ القَـاعُ

فَـإِنْ تَـسْأَلُوا عَنِّـي اتِّعَاظـاً فَـإِنَّنِي ... أَنَـا ابْـنُ خِرِنْبَـاعَ الـدَّجُوْجِيُّ قِرْبَـاعُ

يُنْظَرُ كِتَاب: «مَنْهَلُ الأَدِيْبِ الأَرِيْب، في الأَغَالِيْطِ والأَكَاذِيْب»، لِـمُؤَلِّفِه: ابْنِ سَـلاّلِ الـدَّجَّال، بَتَحْقِيْـق: لاثِـغ بْـنِ فَارِغ، ص: ٢١٤.

الأَذْهَان، فكَانُوا يَسْتَزِيْدُوْنَ إنْشَادَه، ويَسْأَلُوْنَ لَهُ اللهَ السَّعَادَة، وهوَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ يَخْلِطُ البُرَّ بِالشَّعِيْر، وهُمْ يَقُوْلُوْنَ: لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ نِحْرِيْر، وكَانَ مِنْ جُمْلَةِ ما نَفَثَه، قَوْلُهُ غَفَرَ اللهُ عَبَثَه:

تَخَامَطَتْ في نَخَا المِطْنَاخِ خَامِطَةٌ / وَالخَامِطُوْنَ عَلَى مِرْبَاخِهَا نَخَرُوا

مِنْ كُلِّ مِطْنِيْحٍ قَفْحٍ أَوْ أَخِي كَرَحٍ / لا يَسْتَوِي عِنْدَهُ المِحْرَاحُ وَالشَّحَرُ

تَقَرْفَطَتْ في طُقَاهُمْ كُلُّ قَارِطَةٍ / يَكَادُ مِنْ طُرْقَطِيْهَا المَقْطُ يَنْطَشِرُ

لا شَيْءَ يَشْرَخُها إلاَّ إذا انْشَرَخَتْ / وَبَانَ في شُرُخَاتِ الرَّشْخِ مُنْشَخِرُ

فَكُلَّمَا زَمْقَطَتْ في الزَّامِقِيْنَ بِهَا / تَقَرْمَزُوا فَتَقَازَى حَوْلَهَا القَزَرُ

قَامُوا عَلَيْها شَرَافِيْخاً مُقَرْشِفَةً / وَعِنْدَمَا قَرْفَشُوْهَا قَرْفَشَ القَشَرُ

هَيْهَاتَ يَخْثُلُهَا الثَّاخِي عَلَى ثَخَنٍ / أَوْ أَنْ يُثَاخِمَهَا المُخْرَنْثِطُ الخَثِرُ

كَمْ صَارَدُوْهَا عَلَى الصَّفْصَاعِ فَانْصَرَدَتْ / حَتَّى تَصَرْدَلَ مِنْهَا الصَّخْوُ وَالفَصَرُ

فَاسْتَرْضَغَتْ بَعْدَ أَنْ ضَاغَتْ مَرَاضِغُهَا / ضَغْبَاءَ وَضْغَاءَ مَضْغُوْباً بِهَا الغَضَرُ

فَمَا تُغَمْغِمُ في الغَمْرَاءِ مُغْرَتُهَا / إلاَّ وَغَرْشَقَ غُرْقُوْسٌ وَمُنْشَغِرُ

فَيَا لَهَا طَرْعَةً هَاطَتْ عَلَى هَقَطٍ / وَطَوَّهَتْهَا طَهَالِي الهَطْعِ وَالهُطُرُ

فَدُوْنَكُمْ مِنْ تَعَاوِيْذِ الرُّقَى دُرَراً / كَلاَّ، فَأَرْخَصُ مِمَّا قُلْتُهُ الدُّرَرُ

مِنْ شَاعِرٍ لَمْ يَحِدْ عَنْ نَهْجِ عُصْبَتِهِ / ولَمْ يَفُهْ أَبَداً إلاَّ بِمَا أَمَرُوا

فَلاَ تَلُوْمُوْهُ يَوْماً في تَقَعُّرِهِ / فَمَا تَقَعَّرَ إلاَّ حِيْنَمَا انْقَعَرُوا

٢٨ – «مُشَاكَاةُ المُعَلِّمَةِ المُعَلِّم»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ في الاثْنَيْنِ يَتَشَاكَيَان، وكِلاهُمَا عَلَيْهِ مِنَ العَنَاءِ عُنْوَان، والمُعَلِّمَةُ والمُعَلِّمُ في غِنىً عَنِ التَّعْرِيْف، لِحَمْلِهِمَا رِسَالَةَ الدِّيْنِ الحَنِيْف، ولِعُلُوِّهِمَا في المَرَاتِب، مَعَ قِلَّةِ الرَّاتِب، فأَسْأَلُ ذَا الإحْسَانِ والمِنَّة، أَنْ يَجْعَلَ جَزَاءهُمَا الجَنَّة.

وأَصْلُ المَثَلِ أنَّ زَوْجَيْنِ يَعْمَلانِ في التَّعْلِيْم، وهُمَا عَلَى هَذِهِ الحَالِ مُنْذُ قَدِيْم، ومَرَّتْ بِهِمَا السَّنَوَات، ولَمْ تُخَفَّفْ عَنْهُمَا المَشَقَّات، هُوَ نِصَابُهُ كَامِلٌ رَغْمَ طُوْلِ الخِدْمَةِ والخِبْرَة، وهيَ تَسْلُكُ إلى مَدْرَسَتِها النَّائيَةِ مَسَالِكَ وَعْرَة.

وكانَ لَهُمَا جارٌ مُلاصِق، يَسْمَعُ مِنْهُمَا البَوَائق، وفي لَيْلَةٍ شَدِيْدَةِ الظَّلام، سَمِعَهُمَا يَتَرَاشَقَانِ الكَلام، هُوَ يَقُوْلُ: أنا أَكْثَرُ مِنْكِ مَشَقَّة، فلا تَزِيْدِي عَلَيَّ الشُّقَّة، ودَعِيْنِي الآنَ أَنَام، فعِنْدِي غَداً دَوَام، حَيْثُ سَأَمُرُّ عَلَى إدَارَةِ التَّعْلِيْم، وسَأُوَقِّعُ عَلَى مِئةِ تَعْمِيْم، لأنَّنِي زَجَرْتُ طَالِباً لَمْ يَفْهَم، فسَدَّدَ لي لَكْمَةً في الفَم، وحِيْنَ جَذَبْتُهُ مِنْ شَعْرِه الوَفِيْر، إلى حَيْثُ مَكْتَبُ المُدِيْر، رُفِعَ فيَّ تَقْرِيْرٌ مُسْتَعْجَلٌ لِلْوَزَارَة، فما لَبِثُوا أنْ جاؤوا في خفَارَة، وأَخَذُوا عَلَيَّ تَعَهُّدا، أنْ آتِيَهُمْ غَدا، وأَنْ أُعِدَّ اعْتِذَاراً لِلطَّالِب، وأُقَبِّلَ كَفَّ الضَّارِب.

وهيَ تَقُوْلُ لَهُ: أَهَذِهِ الشَّكَاة؟! أَنا كُلَّ يَوْمٍ تَضْرِبُنِي فَتَاة، ولا شَكَاةَ لي مِنْ ذَلِك، شَكْوَاي مِنْ دَرْبِ المَهَالِك، أَخْرُجُ السَّاعَةَ الرَّابِعَة، وأَعُوْدُ لَيْلاً في السَّابِعَة، وأَهِيْمُ فِي الطُّرُقِ المَمْطُوْطَة، كَأَنَّنِي بِنْتُ بَطُّوْطَة، وكَمْ تَعَرَّضْتُ لِحَادِث، ومُعَاكَسَةِ عَابِث، وكَمْ فَارَقَتْ زَمِيْلاتي الحَيَاة، وتَنَاثَرْنَ أَشْلاءَ في الطُّرُقَات، وطَالَمَا نَجَوْتُ بإعْجَاز، وهَا أَنا أَمْشِي عَلَى عُكَّاز.

وبَيْنَمَا الـــجَارُ إلَـيْهِمَا يَـسْتَمِع، إذْ خَفَـتَ صَوْتُــهُمَا المُرْتَفِـع، وأَدْرَكَ أنَّ مَــجْلِسَ خِـصَامِهِمَا انْفَضّ، لَـمَّا سَقَطَ العُكَّازُ عَلَى الأَرْض، ثُمَّ تَـبَـيَّنَ مِنْهُما هُدُوْءَ النَّفْس، حِيْنَ سَمِعَ مَا يُشْبِهُ الـــهَمْس، فانْصَرَفَ عَـمَّا كَانَ فِيْه، وأَنْشَأَ يُنْشِدُ مِلْءَ فِيْه:

حَــــــمَدْتُ اللهَ ربِّي إذْ هَـــــدَاني	غَـدَاةَ عَـلَى الدِّرَاسَـةِ لَـمْ أُصَـمِّمْ
قَنِعْــتُ مِــنَ (الكَفَـاءةِ) بالأَمَــانِي	فَـأَشْرَقَ في طَرِيْقِـي كُـلُّ مُظْلِـمْ
لَــدَيَّ تِـــجَارةٌ أَصْــبَحْتُ فِيْهَــا	عَظِـيْمَ القَــدْرِ لِلــصَّفَقَاتِ أُبْــرِمْ
فَكَــمْ مِـــنْ جَــامِعِيٍّ لَــوْ رَآنِي	يُبَــادِئُ بِالـــسَّلامِ وَلا أُسَـــلِّمْ
ولَــمْ أَتْعَــبْ لأُصْــبِحَ جَامِعِيّــاً	فَــــذَلِكَ لا يُــــؤَخِّرُ أَوْ يُقَــــدِّمْ
فَكَــمْ بَعْـدَ التَّخَــرُّجِ مِــنْ مَـآسٍ	وَإرْهَــــاقٍ لِمُعْدِمَــــةٍ وَمُعْــــدِمْ!
أَفي التَّعْلِــيْمِ يَـبْـتَـنِــيَانِ جِــيْلاً	وَغَيْرُهُمَــا لِـجِيْلِــهِمَا يُــهَدِّمْ؟!
مَعــاً كَــمْ يَلْقَيَــانِ مِــنَ الرَّزَايَــا	وَمِـنْ عَنَـتٍ ثَقِيْـلِ الـوَطْءِ مُؤْلِـمْ
وأَعْجَـبُ مَـا سَـمِعْتُ مِـنَ التَّـشَاكِي	مُـــشَاكَاةُ المُعَلِّمَـــةِ المُعَلِّـــمْ
هُمَـا اثْنَـانِ ارْتَــمَتْ بِــهِمَا حُظُـوْظٌ	وَشُــــدَّ عَلَـــيْهِمَا قَيْــدٌ وَأُحْكِــمْ
فَــإنْ عَــابَ امْــرؤٌ جَهْلِــي فَــإنِّي	لِـــهَذَا الـــجَهْلِ مُـحْتَــرِمٌ مُعَظِّـمْ
فَيَـــا ربِّي لَـــكَ الـــحَمْدُ ابْتِـــدَاءً	وَهَا أَنَـذَا بِـضَافِـي الـحَمْدِ أَخْـتِمْ

٢٩ – «وَلا انْسِلاخُ مُبْتَعَث»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ خَلَعَ عَـرَاقَـتَه، ولَبِسَ عَبَاءَةً لَـمْ تَـكُنْ عَبَاءَتَه، ومَـشَى فِيْهـا يُبَـاهِي بِاخْتِيَالِـه، وتَنَاسَى مِشْيَةَ أَعْمَامِهِ وأَخْوَالِه، والمُبْتَعَثُ مَنْ فَارَقَ أَهْلَهُ ونَاسَه، واغْتَـرَبَ في البِلادِ لأَجْلِ الدِّرَاسَـة، ثُـمَّ عَادَ يَـهْجُو مُـجْتَمَعَهُ وبَلَدَه، ويَنْفُضُ مِنْ تَـخَلُّفِهِمَا يَدَه، وتَعَالَى عَلَيْهِمَا بِرَأْسٍ مُنْـتَفِخ، وذَلِكَ هُوَ المُبْتَعَـثُ المُنْسَلِخ، وثَمَّةَ مُبْتَعَثٌ مَعْدِنُهُ ثَمِيْن، يَعُوْدُ إلى وَطَنِهِ مَرْفُوْعَ الـجَبِيْن، وقَدْ تَوَسَّعَتْ في الابْتِعَـاثِ جِهَـات، وأَتَاحَتْهُ في جَمِيْعِ التَّخَصُّصَات، فأَصْبَحَ نَوْعاً مِنَ التَّرْفِيْه، يَغْتَنِمُهُ الـحَصِيْفُ والـسَّفِيْه، وأَعْجَـبُ مـا فِيْـهِ مِنْ فَجِيْعَة، الابْتِعَاثُ لِدِرَاسَةِ الشَّرِيْعَة.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ رَجُلاً جَدَّ ودَأَب، وتَـخَصَّصَ في دِرَاسَةِ لُغَةِ العَـرَب، ولَـمَّا تَـخَرَّجَ عُـيِّنَ في الصَّادِرِ والوَارِد، وبَقِيَ سِنِيْنَ عَلَى هَذا الـحَالِ الـجَامِد، وكَانَ لَهُ رَفِيْقُ دِرَاسَـةٍ ودَرْب، ابْتَعَثَـهُ أَبُـوْهُ لِلدِّرَاسَةِ في الغَرْب، وعَادَ يَـحْمِلُ شَهَادَاتِه، في التَّخَصُّصِ ذَاتِـه، فعَـزَّاهُ رَاثِيـاً مَـجْهُوْدَهُ الـسَّالِف، وبَكَى عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ في الوَظَائف، إِذْ كَيْفَ سَتَعْتَرِفُ الـجِهَاتُ بِالقَادِم، وقَدْ تَعَلَّمَ لُغَةَ العَـرَبِ لَـدَى الأَعَاجِم؟!، فهَزِئَ القَادِمُ بِمَخَاوِفِ الصَّدِيْق، وعَزَّاهُ عَلَى تَفْكِيْرِهِ الصَّفِيْق، ثُمَّ أَمْعَـنَ في سُخْرِيَــتِه، وقَالَ لَهُ ضِمْنَ هَذْرَمَتِه:

(بْلِيْزْ) اسْتَمِعْ لِي (مَايْ دِيْرْ)، إذا كُنْـتَ تَـرَى أَهَمِّــيَةَ التَّغْيِــيْر، واعْـذُرْنِي إذا حَـدَّثْتُكَ بِـالأَجْنَبِي، لِـجَهْلِـي بِـبَعْضِ الكَلامِ العَـرَبِي، فأَنْتَ (شُوْرْ) تُدْرِكُ الأَبْعَاد، وتَعْلَـمُ أَنَّ الوَضْـعَ (بَـاد)، ومُـشْكِلَـتُكَ أَنْتَ وأَمْثَالِكَ السُّذَّج، أَنَّكُمْ تَنْطَلِقُوْنَ مِنْ مَنْطِقٍ أَهْوَج، وتُؤَوِّلُوْنَ في فَـضْلِكُمُ النُّـصُوْص، وأَنْـتُمْ حَفْنَـةُ أَعْرَابٍ لُصُوْص، والمُحْزِنُ أَنَّكَ وأَشْبَاهَكَ كَثْرَة، وتَقِفُوْنَ في دَرْبِ التَّقَـدُّمِ عَثْـرَة، كَـمَا أَنَّكُـمْ سَـطْحِيُّوْنَ

بُؤَسَاء، وتُفَضِّلُوْنَ التَّخَلُّفَ والانْطِوَاء، أُولَئكَ يَسِيْرُوْنَ لِلأَمَامِ بِخَطْوٍ حَثِيْث، وأَنْتُمْ تُسَايِرُوْنَ لُغَةَ: أَكَلُوْهُ البَرَاغِيْث، وهُمْ يَضْرِبُوْنَ دَوْلَةً وأُخْرَى، وأَنْتُمْ زَيْدُكُمْ يَضْرِبُ عَمْرا، وهُمْ وَقَفُوا عَلَى تِقْنِيَةِ الجِيْنَات، وأَنْتُمْ تَقِفُوْنَ عَلَى أَطْلالِ المُعَلَّقَات، وهُمْ صَعَدُوا بِصَوَارِيْخِهِمُ الأَقْمَار، وأَنْتُمْ تُصَعِّدُوْنَ طَرَائقَ الاسْتِجْمَار، وهُمْ يَخْتَلِفُوْنَ إلى مَيَادِيْنِ الأَبْحَاث، وأَنْتُمْ تَخْتَلِفُوْنَ في قَضَايَا المِيْرَاث، والآنَ (آيْ ثِنْكْ) حَانَتْ سَاعَةُ الانْتِفَاض، ونَشْلِ أَمْثَالِكَ المُنْدَثِرِيْنَ مِنَ الأَنْقَاض، وجَاءَ وَقْتُ أَمْثَالِي مِنَ التَّنْوِيْرِيِّيْن، لِيُخْرِجُوْكُمْ مِنَ الضَّلالِ المُبِيْن، فمِنْ فَضْلِكَ (نَاوْ) (جُوْ أَوِيْ)، وابْتَعِدْ عَنِّي وعَنْ (مَايْ وِيْ)، فَلَدَيَّ مَجْمُوْعَةُ خِيَارَات، مِنْ وَزَارَاتٍ ومُؤَسَّسَات، وكُلُّها تُسَاوِمُنِي بِالرَّاتِبِ الكَبِيْر، لأَقْبَلَ لَدَيْها وَظِيْفَةَ مُدِيْر، واقْبَعْ أَنْتَ في الأَرْشِيْف، وأَرِحْنِي مِنْ هَذْرِكَ السَّخِيْف.[1]

وحِيْنَئذٍ ضَرَبَ صَاحِبُنا كَفًّا بِكَفّ، وكَتَمَ في أَحْشَائهِ الأَسَى والأَسَف، وتَحَقَّقَ أَنَّ القَادِمَ غَيَّرَ المَشَارِب، وأَنَّ انْتِمَاءهُ حُلِقَ مَعَ الشَّارِب، ثُمَّ دَعَا اللهَ أَنْ يَحْفَظَ الدِّيْنَ والوَطَن، مِمَّا يَبُثُّهُ أَمْثَالُ هَذا القَادِمِ مِنْ عَفَن.

ولَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعائهِ السَّالِف، وجَمَدَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ الوَاكِف، أَقْسَمَ أَنْ يَنْظِمَ فِيْهِ الدُّرَر، عَلَى بَحْرٍ جَدِيْدٍ مُبْتَكَر، يَأْسِرُ بِعُذُوْبَةِ إِيْقَاعِهِ الآذَان، ويُصْبِحُ السَّابِعَ عَشَرَ في الأَوْزَان، وأَنْ يُغْرِقَ

---

(١) تَرْجَمَةُ ما بَيْنَ الأَقْوَاس:

(بْلِيْزْ/ please): إنْ سَمَحْتَ، (مَايْ دِيْرْ/ my dear): عَزِيْزِي، (شُوْرْ/ sure): بِالتَّأْكِيْد، (بَادْ/ bad): سَيِّء، (آيْ ثِنْكْ/ I think): أَظُنّ، (نَاوْ/ now): الآن، (جُوْ أَوِيْ/ go away): اغْرُبْ عَنْ وَجْهِي، (مَايْ وِيْ/ my way): طَرِيْقِي.

قَالَ الرَّاوِي: وقَدْ رَطَنَ المُنْسَلِخُ بِكَلامٍ آخرَ ظَاهِرُهُ العُجْمَة، فسَأَلْتُ عَنْ مَعْنَاهُ أَهْلَ الاخْتِصَاص، فلَمْ يَعْرِفُوا لَهُ تَرْجَمَة.

المُنْسَلِخَ القَادِمِ، في عُبَابِ بَحْرِهِ المُتَلاطِمِ، لِيَكُوْنَ عِبْرَةً لِكُلِّ مُبْتَعَثٍ دَالِه، ولِكُـلِّ أَمْلَـطِ الوَجْـهِ مِـنْ أَمْثَالِه، مِنْ ذَوِي الفِكْرِ المُهَجَّنِ المُـتَّسِخِ، ورَأَى أَنْ يُسَمِّيَهُ البَحْـرَ المُنْـسَلِخ، وذَلِـكَ لانْـسِلاخِهِ عَـنْ دَوَائِرِ الـخَلِيْل، ولِـمُطَابَقَةِ الاسْمِ لِصِفَةِ ذَلِكَ الدَّخِيْل، وضَـبَطَ إِيْقَاعَـهُ العَـذْبَ المُنْـسَاب، بِـهَذا الضَّابِطِ الظَّرِيْفِ العُجَاب:، «سَلَخُوا أَوْزَانَ الـخَلِيْلِ لا فَلَـتُوا، فَـاعِلاتُنْ مُـسْتَفْعِلُنْ مُفَاعَلَـتُ»، وكَانَ مِـمَّا انْتَظَمَ بِهِ السِّلْك، قَوْلُهُ في قَصِيْدَتِهِ تِلْك:

يَـا شَـقَاءَ الأَيَّـامِ حِـيْنَ يَغْنَمُهَـا	خَامِـلٌ لَـمْ يَكُـنْ لِقَـدْرِهِ ثَمَـنُ
مَـنْ رَأَى مِنْـهُ مَـا رَأَيْتُـهُ ذَرَفَـتْ	عَيْنُـهُ دَمْعَهَـا، وَعَـادَهُ الـشَّجَنُ
كَـانَ قَبْـلَ ابْتِعَاثِـهِ أَخَـا تَـرَفٍ	يُفْصِحُ العِـيُّ عَـنْ حِجَـاهُ وَالـسِّمَنُ
يَـسْحَبُ الـذَّيْلَ لاهِيـاً وَلا حَـسَبٌ	فَهْـوَ كَالثَّـدْيِ وَارِمـاً وَلا لَـبَنُ
بَعُـدَتْ عَنْـهُ غَايَـةٌ مُيَـسَّرَةٌ	حَـالَ مَـا بَيْنَـهَا وَبَيْنَـهُ الـوَهَنُ
وَرَمَتْـهُ الفِجَـاجُ عَـنْ مَنَاكِبِهَـا	وَاشْتَـكَى نَتْنَـهُ الكَنِيْـفُ وَالعَفَـنُ
فَـاعْجَبُوا مِـمَّنْ هَـذِهِ بَـوَادِرُهُ	حِـيْنَ يُـزْرِي بِإِرْثِـهِ وَيَمْـتَهِنُ!
لَـمْ يُطِقْ تَـحْقِيْقَ الطُّمُوْحِ في وَطَـنٍ	هُـوَ لِلـصَّابِرِيْنَ كُلِّهِـمْ وَطَـنُ
فَغَـدَاةَ ارْتَـأَى أَبُـوْهُ خَيْبَتَـهُ	وَتَـمَادَى بِـهِ عَـلَى ابْنِـهِ الـحَزَنُ
سَـاقَهُ –مِـنْ عَنَائِـهِ– إِلى جِهَـةٍ	يَـخْدَعُ النَّاظِرِيْنَ وَجْهُهَـا الـحَسَنُ
فَمَـضَتْ أَشْـهُرٌ وَعَـادَ مُلْتَحِفـاً	بِالـشَّهَادَاتِ.. لَيْـتَ أَنَّـهَا كَفَـنُ
مَلَـطَ الوَجْـهَ كُلَّـهُ، وَأَبْرَزَهَـا	سِحْنَةً كَمْ تَـحْلُوْ لِقُبْحِهَـا السِّحَنُ

شَاهَ وَجْهُ أُزِيْلَ عَنْهُ شَارِبُهُ ... فَبَدَا عَوْرَةً، وَكُلُّكُمْ فَطِنُ

وَامْتَطَاهُ الأَعَاجِمُ الأُلَى جَعَلُوا ... مِنْهُ بَغْلاً مُرَوَّضاً لَهُ رَسَنُ

أَمَّهُمْ يَدْرُسُ الفَصِيْحَ وَا عَجِبِي! ... فَأَتَانَا مُرَاطِناً بِمَا رَطَنُوا!

وَانْثَنَى يَزْدَرِي تُرَاثَهُ بِفَمٍ ... أُشْهِدُ اللهَ أَنَّهُ فَمٌ نَتِنُ

هَالَهُ مَا رَآهُ مِنْ زَخَارِفِهِمْ ... وَأَرَاعَتْهُ بِاخْضِرَارِهَا الدِّمَنُ

خَلَبَتْ لُبَّهُ القُشُوْرُ، فَانْبَهَرَتْ ... مُقْلَتُهُ مِنْهُ، ثُمَّ أَنْصَتَتْ أُذُنُ

وَيْلَهُ عَادَ يَوْمَ عَادَ مُنْسَلِخاً ... لا جُذُوْرٌ يُنْمَى لَهَا وَلا فَنَنُ

فَالْمَنَايَا وَلا انْسِلاخُ مُبْتَعَثٍ ... كَمْ تَمَنَّى فِرَاقَ رُوْحِهِ البَدَنُ

٣٠ – «يَعِيْبُ النَّاسَ مَوْفُوْرُ العُيُوْب»

وهوَ مَثَلٌ يُقَالُ فِيْمَنْ شَتَمَ وآذَى، وراحَ يَـهْجُو ذَاكَ ويُعَرِّضُ بِـهَذا، وهوَ في مُـحِيْطَاتِ عُيُوْبِـهِ غَارِق، ومَسَاوِئُهُ تَسُدُّ المَغَارِبَ والمَشَارِق، ومَوْفُوْرُ العُيُوْبِ مَنِ امْتَلأَ بِالـخَطَايَا، فغَفَلَ عَنْهَا وراقَبَ عُيُوْبَ البَرَايَا.

وأَصْلُ المَثَلِ أَنَّ شَابّاً أَحَبَّ الأَدَب، وآتَـاهُ اللهُ في الـشِّعْرِ والنَّثْـرِ مـا أَحَـبّ، فكَـانَ كُلَّـما نَظَـمَ قَصِيْدَة، أَوْ خَصَّ بِمَقَالاتِهِ جَرِيْدَة، لَـمْ يُسْمَعْ لَهُ ولَـمْ يُقْرَأ، وبِالإِعْرَاضِ والتَّثْبِيْطِ يُفْجَأ، وكَانَ عَلَى ثِقَتِهِ بِمَا أَبْدَع، يَسْمَعُ لآخَرِيْنَ طُبُوْلاً تُقْرَع، وحِيْنَ يُفَتِّشُ في بَعْضِهَا عَنْ سَمِيْن، لا يَـجِدُ إلاّ جَعْجَعَةً ولا طَحِيْن، وكَانَ أَكْثَرَ ما أَثَـارَ حَفِيْظَـتَه، وأَعْلَمَـهُ قِيْمَـةَ أَدَبِـهِ وقِيْمَتَـه، احْتِفَـاءُ النَّـاسِ بِالـسَّاقِطِ والسَّاقِطَة، مَتَى تَقَيَّآ الرِّوَايَاتِ الـهَابِطَة، مَـعَ خُلُوِّهَـا مِـنَ الإِبْـدَاعِ والإِحْكَـام، وعَزْفِهَـا عَـلَى وَتَـرِ الـجِنْسِ والـحَرَام، وزَادَ غَبْنَهُ حِوَارٌ قَرَأَهُ في صَحِيْفَة، مَعَ سَاقِطَةٍ تُسَوِّقُ رِوَايَتَها الـسَّخِيْفَة، وتَـزْعُمُ مِنْ فَرْطِ وَقَاحَتِهَا المُـتَنَاهِيَة، أَنَّـها تَدْعُو إلى الأَخْلاقِ السَّامِيَة، وأَنَّـها تُـجَرِّدُ الوَاقِعَ بِمَا فِيْـه، لِيَـسْهُلَ عِلاجُهُ عَلَى مُدَاوِيْه، وأَنَّـها بِكِتَابَةِ هَذْيِـهَا مُشْفِقَة، وكَمَنْ يُقَدِّمُ لِلْمُجْتَمَعِ صَدَقَة، وهـوَ يَعْلَـمُ عَنْهـا أَيَّامَ غَوَايَتِه، مَا تُـنَـزَّهُ الأَسْمَاعُ عَنْ رِوَايَتِه، فَكَمْ وَدَّ لَوْ أَنْ صَاحَ في وَجْهِهَـا: ارْفُقِـي، لَـكِ الوَيْـلُ لا تَـهْذِي وَلا تَـتَصَدَّقِي.

فلَـمَّا رَأَى صَاحِبُنا ضَيْعَةَ الأَدَب، وانْصِرَافَ النَّـاسِ إلى (قِلَّـةِ الأَدَب)، رَغِـبَ أَنْ يُعِيْـدَهُمْ إلى حِيَاضِه، وأَنْ يَـجْنِـيَهُمْ مِنْ أَزَاهِيْرِ رِيَاضِه، فمَزَجَ مَـعَ رَغْبَتِـهِ تِلْـكَ سُـخْطَهُ الـسَّالِف، وجَمَـعَ بَـيْنَ السُّخْرِيَةِ والأَدَبِ الـهَادِف، وصَاغَ لَـهُمْ جُمْلَةً مِنَ الأَحَادِيْـث، وصَـبَّها في قَالَـبٍ تُرَاثِـيٍّ حَـدِيْث،

وأَخَذَ مِنَ الـحُسْنَـيَـيْنِ المَحَاسِن، لِتَسْهُلَ عَلَى الفَصِيْحِ واللاّحِـن، واخْتَلَـقَ في بِدَايَاتِـها الأَمْثَـال، وجَنَّحَ في تَفَاصِيْلِها بِالـخَيَال، وزَخْرَفَ طَيَّاتِـها بِالنَّثْرِ المَسْجُوْع، ووَشَّى نَـسْجَها بِالـشِّعْرِ المَطْبُـوْع، فحِيْناً يَنْظُـرُ إلى الوَاقِعِ ويُـحَاذِيْه، وفي أَحْيَانٍ أُخْرَى يُبَالِغُ فِيْه، والعَارِفُ بِمَقَاصِدِ الأَدَبِ وشُجُوْنِه، يُدْرِكُ أَنَّ التَّهْوِيْلَ أَعْذَبُ فُنُوْنِه.

وكَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَـحْظَى عَمَلُهُ بِالقَبُوْل، وأَنْ يَـخْلُصَ مِنْ قَلَـمِ العَاتِـبِ والـجَهُوْل، فبَـيَّنَ أَنَّـهُ حِيْنَمَـا اجْتَـرَأ، لَـمْ يُنَـزِّهْ نَفْسَهُ عَنِ الـخَطَأ، ومَا هُوَ إلاّ عُضْوٌ في جَسَد، وطَالَـمَا وَقَـعَ فِـيْما انْتَقَـد، وعَابَ قَوْماً بِـبَعْضِ ما فِيْه، وقَلَّدَ الـحُطَيْئَةَ في قَوَافِيْه، ولِذا أَوْدَعَ عَمَلَهُ هَذا الإِيْضَاح، والْتَمَسَ مِـنْ مُسِيْئِي فَهْمِهِ السَّمَاح، وسَأَلَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ ذُنُوْبَه، وأَنْ يُنِيْرَ بِالـهِدَايَةِ دُرُوْبَه، ثُـمَّ لَـجَّ في الاسْـتِغْفَار، وأَنْشَدَ ودَمْعُهُ مِدْرَار:

إِلَـهِي جَـلَّ مِنِّـي الـخِزْيُ فَـاغْفِرْ	لِــــلاَهٍ في مَــــخَازِيْهِ لَعُـــوْبِ
دَعَـوْتَ المُـسْرِفِيْنَ: عِبَـادِيَ ادْعُـوا	أُجِـبْكُمْ، فَاسْـتَجِبْ لِي وَامْـحُ حُـوْبِي
فَمَـنْ لِي إِنْ سَـخِطْتَ سِـوَاكَ رَبِّي	وَقَـدْ ضَـاقَتْ بِخُطْـوَاتِي دُرُوْبِي؟
وَتَـدْرِي أَنَّنِـي عَـاصٍ، وَأَدْرِي	بِأَنَّـكَ أَنْـتَ غَفَّـارُ الـذُّنُوْبِ
وَهَـذِي أَدْمُعِـي سَـحَّتْ رَجَـاءً	وَتُوْشِـكُ أَنْ تَكُـفَّ مِـنَ النُّـضُوْبِ
وَوَجْهِي اصْفَـرَّ خَـشْيَةَ مَـا سَـيَلْقَى	وهَـا هُـوَ سَـاهِمٌ بَـادِي الـشُّحُوْبِ
أُقِـرُّ بِـأَنَّنِي عَـاصٍ، وَعِنْـدِي	مِـنَ الـزَّلاَّتِ مُـخْتَلِفُ الـضُّرُوْبِ
وَأَقْـبَحُ مَـا لَـدَيَّ مِـنَ الـخَطَايَا	مُبَـادَأَتِي عِبَـادَكَ بِالـحُرُوْبِ

أُهَـــاجِي ذَاكَ، ثُـــمَّ أَذُمُّ هَــــذَا وَأَرْمِـــي غَـــافِلاً مِـــنْهُمْ بِطُـــوْبِي

وَأَبْحَـــثُ عَـــنْ عُيُـــوْبِهِمُ، وَعَيْبِـــي أَحَـــقُّ بِـــبَحْثِ مَغْـــرُوْرٍ كَـــذُوْبِ

وَمَـــا مَيَّزْتَنِـــي عَـــنْهُمْ، وَلَكِـــنْ يَعِيْـــبُ النَّـــاسَ مَوْفُـــوْرُ العُيُـــوْبِ

فَيَـــا مَـــوْلاَيَ بَلِّغْنِـــي رَشَـــادِي وَيَـــا نَـفْـــسِي إِلى مَـــوْلاَكِ تُـــوْبِي

قَفْلَة :

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ،
أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ،
أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوْبُ إِلَيْكَ».

الفهرس :

فائت الأمثال :

ناسج الأمثال :

– فواز بن عبدالعزيز بن محمد اللعبون.

– من مواليد مدينة الرياض: ٢١/ ١٠/ ١٣٩٥هـ – ٢٧/ ١٠/ ١٩٧٥م.

– تخرج في كلية اللغة العربية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض عام: ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

– عُيِّن معيداً في الكلية نفسها في قسم الأدب عام: ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، فمحاضراً عام: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، فأستاذاً مساعداً عام: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

– حاصل على الماجستير من قسم الأدب بعنوان: «شعر عبدالله شرف: دراسة موضوعية وفنية» عام: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

– حاصل على الدكتوراه من القسم نفسه بعنوان: «شعر المرأة السعودية: دراسة في الرؤية والبنية» عام: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

– من الأعمال النقدية والإبداعية:

– فائت الأمثال: مقاربة أدبية ساخرة.

– عملاق صناديد: دراسة نقدية (تحت الطبع).

– احتدام نسقين: دراسة نقدية موازِنة (تحت الطبع).

– شعر المرأة السعودية (تحت الطبع).

– ديوانان شعريان (تحت الطبع).

– من النشاطات الأدبية:

– المشاركة في عدد من الأمسيات الشعرية الداخلية والخارجية، وتمثيل المملكة العربية السعودية في بعض الفعاليات الشعرية والثقافية.

– الإعداد والتقديم لجملة من البرامج الأدبية والثقافية في وسائل الإعلام المختلفة.

– الإسهام المتنوع مع الصحافة والإذاعة والفضائيات محليّاً وعربيّا.

جامعة الإمام – كلية اللغة العربية في الرياض – قسم الأدب

ص.ب. ٥٧٦٢ الرياض ١١٤٣٢

البريد الشبكي: alrsad@hotmail.com


«أفرغ من ذات عنو»
وهو مثل يقال فيمن فتك به الفراغ، وخلا من هدف وزاغ،
والعنو زاوية في جريدة، تحتوي كل الرأي ومفيده، وقد تكالبت عليه النساء،
الحصيفة منهن والبلهاء،
وأصل المثل أن رجلاً قضى عليه التخصص، بأن يلزم على كتابات من التلصص،
فأشار عليه من أشارته سخيفة، بأن يشترك في أكثر من صحيفة،
فاضطر إلى تحليل فيس الاشتراك، بعد أن وقع في الأشراك،
فراح يقرأ كل عنو، ويصغي لكل نغمة عود.